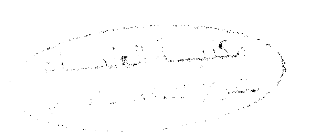
القرآن وصحوة العقل

أمتي .. آلام .. وآمال

دكتور / محمد محمد داود



دار المنار
للنشر والتوزيع
٩ ش حسن العدوى - الحسين - القاهرة
ت: ٥٩١٥٠٨٥

رقم الا يداع ٢٢٠٢٥ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-295-151-7

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمـة

المحنة . . الكارثة . . المأساة التى حلت بنا ليست جائحة من السماء لا ندرى لها سببًا ، وإنما هى بما كسبت أيدينا ، جزاء دخول عقولنا حارة الجمود والوقوف عند حدود الماضى نتباهى به ونتغنى بأمجاده ، وغفلنا عن مسئوليتنا عن الحاضر والمستقبل . . ويتساءل العقلاء : هل نحن شعوب ترتد إلى الوراء ؟ ولا تحسن النظر إلى المستقبل ؟!!

ومن العجيب والمؤلم أننا نستقبل صنيع العدو بنا بالولولة والصياح . . نستنكر ونشجب وندين إلى أن وصل بنا الأمر إلى أنَّ جهدنا قد انحصر فى إثبات خطأ العدو فى حقنا باحتلال الأرض ونهب الثروات واحتلال العقول وتغريب الفكر ، وكأن ذلك سيعفينا من مسئوليتنا عن هول الكارثة التى وقعت بنا جزاء سلبيتنا وغفلتنا وجمودنا !!

ويتساءل العقلاء : ماذا ننتظر من عدونا ؟!!

هل ننتظر أن يقدم لنا هدية ؟! أو أن يسعى فى مصالحنا ؟!

هل ننتظر من عدونا إلا أن يتربص بنا ويكيد لنا ويدبر لإهلاكنا ؟

أليس هذا هو دوره ؟!

* بلى إنه دوره الذي يؤديه بامتياز واقتدار ، لكن المشكلة فينا ! والمأساة فى دورنا الغائب عن الساحة ، فى سلبيتنا وجمودنا !!.

- المشكلة فى وعينا المفقود بكل أبعاد وجوانب الأزمة!!.

- المشكلة فى تغييب العقل العربى عن ساحة الإسهام فى الإنتاج الحضارى وامتلاك رؤية للمستقبل لها وسائلها وآلياتها !!

- المشكلة فى أننا نمتلك ثروات طائلة لكن تخلفنا جعلنا نتسول طعامنا ووسائل حياتنا !!

- المشكلة فى أننا لم نحسن قراءة الواقع ولم نفقه مراتب الأعمال !!

- المشكلة فى أننا نتغنى بالمثاليات النورانية من القرآن والسنة ، فى حين أن واقعنا أبعد ما يكون عن الالتزام بهذه المثاليات !

- المشكلة فى أنظمة تفرض ما تريد بالعصا ، وتعيش بمنطق فرعون ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر/ ٢٩) .

وفى ظل البطالة العقلية والذاكرة المفقودة ملأ العبث مؤسساتنا حتى صار الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية مضرب المثل .

المشكلة أننا لا نريد أن نُنصف الإسلام من أنفسنا ، وما زلنا نعانى من البطالة العقلية والذاكرة المفقودة التى لا تستفيد من التجربة ولا تنتفع من عبر التاريخ !

إن الواقع يكشف لنا عن حقيقة مُرَّةٍ ، وهى أن سلبيتنا المتراكمة صارت أخطر علينا من عدونا !!

والسؤال الذى يفرض نفسه بقوة :

هل يمكن أن نبقى مسلوبى الإرادة ، مشلولى التفكير إلى أن يهلكنا مرض الجمود والسلبية ، فيذهب الله بنا ويأتى بقوم غيرنا ثم لا يكونوا أمثالنا . . ؟!

أم ستكون منا اليقظة وندرك دورنا الغائب . . ونسترد وعينا المفقود . . فتتحقق لنا الخيرية وتكون لنا المقدمة بين الأمم ؟!

والفائز حقًّا من يدرك دوره .

محمد داود
www.rasaeldawood.com
md@rasaeldawood.com

محنة الأمة وفقه الثبات

اللغة، الكلمات .. تقف عاجزة عن التعبير عن بشاعة المحنة التى تمر بها الأمة على أرض فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير والشيشان، وجميع البقاع الإسلامية.

وهذه المحنة البشعة ليست هى الأولى فى تاريخ الأمة، فقد مرت بالأمة نكبات ومذابح من كيد أعدائها، فهناك مذبحة الصليبيين فى بيت المقدس فى عهد صلاح الدين، ومذابح الأندلس عند سقوط غرناطة، ومذابح المسلمين الهنود وقت انفصال باكستان عن الهند، ومذابح صابرا وشاتيلا، ومذابح البوسنة والهرسك. والآن المذابح البشعة على أرض فلسطين.

وتزداد بشاعة المحنة المعاصرة، لسببين:

* **الأول**: موقف العالم من هذه المذابح، وهذا الصمت المريب.

* **الثانى**: الظروف المعاصرة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر والهجمة الشرسة ضد المسلمين، وما عليه العرب من تفرق وتمزق وضعف، فى مقابل ما عليه القوى الصهيونية التى لم تكن قط أشد تمكنًا وسيطرة من اليوم.

ولسنا فى مجال وصف المحنة، فما تراه العين من بشاعة يكفى ويغنى عن الكلام، كما أننا لسنا فى مجال إثارة العواطف الملتهبة؛ لأن بشاعة المحنة لا تداويها الكلمات ولا تفيدها الهتافات.

وإنما نحن أمام محاولة جادة لوضع أمرين حقيقيين بين يدى شباب الأمة:

* **الأول**: أن نتعلم الدرس من هذه المحنة، كى لا تتكرر المحنة مع أجيال أخرى.

* **الثانى**: تحديد طريق الخلاص لهذه الأمة من هذه المحنة البشعة.

وما من شك فى أن المحنة لها أبعاد سياسية وعسكرية واجتماعية... إلخ، وعلماء كل تخصص هم أحق الناس بالحديث فيه.

وبشأن البعد الدينى الإيمانى لهذه المحنة، فالقرآن الكريم يبصِّرُنا بفقه المواجهة، بفقه الأزمات والمحن، من خلال خمسة توجيهات إلهية للأمة جاءت فى آيتين من سورة الأنفال فى سياق الحديث عن صراع الحق مع الباطل، والمواجهة الأولى فى غزوة بدر، قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الأنفال/ ٤٥- ٤٦ .

والآيتان دعوة إلى فقه الثبات فى وجه المحن والشدائد، كما أرشدت الآيتان إلى وسائل تحقيق الثبات.

* **فقه الثبات** :

الثبات قوة فى التحمل، وعدم انهيار عند المفاجأة، وإنما تماسك وصمود وقدرة على المواجهة، وصبر على المكاره. ويوصف الإنسان بالثبات إذا استقر رأيه واطمأن لوجهة محددة، ولم يتحير أو يتردد إذا فاجأه ما يزعج، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ آل عمران/ ١٧٣ .

وقد أمرنا الله - عز وجل - باتخاذ وسائل للثبات والقوة فى مواجهة المحن:

* **وسائل تحقيق الثبات**:

* **الوسائل المادية**:

١- القوة؛ فالضعيف لا يثبت أمام القوى، لذلك أمرنا الله بالتزود

من القوة بكل طاقتنا، وأمرنا أن نستنفد كل ما فى وسعنا من الإعداد والتدريب والأخذ بأسباب القوة، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ الأنفال/ ٦٠ .

٢- العمل والإنتاج؛ فالفقير لا يثبت أمام الغنى، لذلك حارب الإسلام الفقر عن طريق العمل والزكاة والتكافل الاجتماعى، ولنا أسوة حسنة فى سيدنا رسول الله ﷺ وكيف حوَّل الرجل السائل القادر على العمل إلى طاقة إنتاجية، حين باع النبى ﷺ متاعه واشترى له أدوات العمل، وحوله إلى طاقة منتجة.

٣- العلم؛ فالجهل لا يثبت أمام العلم، لذلك حثنا الله سبحانه وتعالى على العلم، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ المجادلة/ ١١ .

٤- التماسك والوحدة؛ فالتشتت لا يثبت أمام الاتحاد، لذلك أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتكتل والاعتصام، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ آل عمران/ ١٠٣ .

* وأما الوسائل الإيمانية:

فقد جمعها الله فى آية سورة الأنفال بقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ الأنفال/ ٤٥ .

* ولا يخفى على وعى المؤمن أثر الذكر فى تقوية القلب بما ينزل عليه من سكينة وطمأنينة واستقرار نفسى يتيح للمؤمن أن يتعامل مع الأزمة بعقل وحكمة، فيقرأ الواقع قراءة صحيحة، ويقف على ميزان القوة لدى عدوه، ويدرك أسباب الخلل وكيف السبيل إلى تداركها.

* ولقد عرفت الأمة فى أوقاتها المعاصرة الذكر اللساني القولى،

فيجلس أحدنا يردد يجلس ويقول مائه مرة، أو ألف مرة: سبحان الله، والحمد لله، والله اكبر، ونحو ذلك، وهذا طيب، وهذا مطلوب، ولكن ينبغي أن يفهم المؤمن أن ذكر الله لا يقتصر عند حد الذكر اللساني (القولى)، وقد بينت كتب التفسير وكتب اللغة، أن القرآن الكريم أرشد إلى دلالات كثيرة لمعنى ذكر الله عز وجل، من بينها الذكر العملي بإحياء هدى القرآن الكريم وإحياء سنة رسول الله ﷺ، فحين تكمل فينا الأسوة والقدوة نكون من أهل الذكر الحقيقى.

فمثلًا فى العمل حينما نتكلم عن معايير الجودة فى الإسلام، فهي لون من ألوان الذكر العملي، وحين نعرف معنى الإتقان فى العمل، فهذا لون من ألوان الذكر العملي أيضًا. أن يكون لنا الاكتشاف العلمي والمصالحة مع كون الله عز وجل الذى وصلنا الله به، فإن التخلف العلمي جريمة فى حق المسلمين فى حياتنا المعاصرة، فالذكر العملي يمتد إلى هذه الشئون كلها.

* ثم يقول ربنا جل جلاله مبينًا أسباب التماسك وعدم الانهيار أمام الشدائد والمحن قال تعالى:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الأنفال/٤٦.

وإذا أرادت الأمة أن تجتمع على شيء يجمع شملها ويوحد أمرها، فهو القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ، وأن تبتعد الأمة عن التنازع والفرقة والخلاف.

فكفانا تفرقًا، وكفانا تمزقًا وتشتتًا، إن أهل الباطل اصطلحوا واجتمعوا على باطلهم، فأولى بأهل الحق أن يتحدوا لحماية حقهم وصيانته، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ أى تضعفوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أى قوتكم.

ثم يقول لنا ربنا (فى التوجيه الأخير : ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ والصبر هنا ليس كما يفهم البعض شيئًا سلبيًّا كالاستسلام ونحو ذلك، إنما الصبر قوة فى التحمل لإنجاز طموحات وآمال الأمة، وقوة فى التماسك وعدم الانهيار أمام الفتن والأعداء.

هكذا يوجهنا الله تبارك وتعالى إلى أسباب النصر كي يتأتى للأمة أن تكون فى المقدمة.

إن المحن البشعة التى تصيب الأمم يتخذ منها العقلاء دافعًا للتصحيح، وينبغي للأمة أن تهتدي بهدى القرآن الكريم، وأن تعمل بأسباب النصر التي أمر الله سبحانه وتعالى بها، فالقرآن موجود ورب القرآن موجود، والسنة موجودة، والذي غاب عن منظومة التفوق ومنظومة التقدم هو الإنسان القرآني الذى يعمل بالقرآن ويتخلق بالقرآن، ويتأدب بالقرآن، ويتأسى بنبى القرآن ﷺ.

*** مواقف الأنبياء فى الثبات :**

١- موقف النبى ﷺ والذين معه بعد غزوة أحد حين أرسل إليهم أبو سفيان أنه سيرجع إليهم بعد حشد الحشود كى يستأصلهم عن آخرهم فلما بلغتهم الرسالة قالوا كما قص القرآن علينا : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ آل عمران/ ١٧٣ . ورجع أبو سفيان ولم يحاربهم.

٢- موقف النبى ﷺ فى الغار، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ التوبة/ ٤٠ .

٣- موقف النبى ﷺ الذى رواه جابر قال: (كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة ظليلة، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بالشجرة، فاخترطه المشرك وقال: من يمنعك منى؟ قال ﷺ: «الله». فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ السيف فقال: «من يمنعك منى؟» فقال المشرك: كُن خير آخذ. فقال ﷺ: « تشهد أن لا إلا الله، وأنى رسول الله ؟» قال: لا، ولكنى أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلّى النبى ﷺ سبيله، فأتى الرجل أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس).

٤- موقف نبى الله موسى عليه السلام حين حاصره جيش فرعون فكان البحر أمامه وجيش فرعون من خلفه، فقال له قومه: إنَّا لمدركون، إمَّا أن يصيبنا الغرق فى البحر، وإما أن يهلكنا جيش فرعون ويقضى علينا، فكان الثبات من سيدنا موسى عليه السلام ليقينه فى الله تعالى وتوكله عليه، فأجابهم قائلًا: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ الشعراء/ ٦٢ .

٥- موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام لما ألقاه قومه فى النار، فقال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ آل عمران/ ١٧٣ .

٦- موقف سيدنا يعقوب عليه السلام ومصابه فى ابنه يوسف عليه السلام وأولاده، وصبره وقوله لهم: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يوسف/ ١٨ . وأمله الكبير فى الله عز وجل وشدة يقينه فى فرج الله بعد اشتداد الكرب وسجن ابنه الثانى، وهذا أعلى درجات اليقين والإيمان بالله، وكلما ازدادت المحنة ازداد الأمل فى وجه الله، وبعد مُصَابه فى ابنه الثانى قال عليه السلام: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ يوسف/ ٨٣ .

*** مواقف المؤمنين فى الثبات :**

١- عند مواجهة الأعداء تكرر سؤال الثبات من الله، انظر إلى قوله عز وجل: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾البقرة/ ٢٥٠ .

٢- موقف أم سلمة - رضى الله عنها - لما مات عنها زوجها أبو سلمة، وقولها: ومن خير من أبى سلمة؟ فتزوجها النبى ﷺ فقالت: لقد أبدلنى الله خيرًا.

٣- علمنا القرآن الثبات فى مواجهة الشدائد والمحن، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ البقرة/١٥٦-١٥٧ .

٤- قول المرأة لرسول الله ﷺ: إنك لم تصب بمصيبتى، عندما مر عليها النبى ﷺ وهى تبكى جزعًا أمام قبر ابنها، فأمرها أن تكف عن البكاء وتصبر وتحتسب، فلم تستجب له، فلما عرفت أنه النبى ﷺ قالت: أنا صابرة يا رسول الله، فأجابها النبى ﷺ بقوله: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

ومواقف الصالحين كثيرة، لو تقصينا مواقفهم ما انتهينا.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

الإسلام والآخر

من الحقائق الخالدة أن الإسلام قد استوعب كل الحضارات والديانات السابقة، وجاء بأحسن ما فيها، وجاء الرسول الكريم سيدنا محمد ﷺ مصدقًا لما بين يديه من الرسل، قال تعالى:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ فاطر/ ٣١ .

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ الأحقاف/ ٣٠ .

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾ الصف/ ٦ .

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ البقرة/ ٢٨٥ .

ومن حقائق القرآن الخالدة أيضًا أن الواحدية والأحدية تكون للذات الإلهية دون سواها، وأن التنوع والتعدد والاختلاف سنة إلهية كونية فى كل ما سوى الذات الإلهية، قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ الروم/ ٢٢ .

ووضح القرآن أن التنوع والتمايز يكون حافزًا للتسابق والمنافسة فى طريق الخير، قال تعالى:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ المائدة/ ٤٨ .

وأمرنا القرآن أن نتبع الأحسن والأفضل، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾ الزمر/١٨ .

وفى الإسلام سنَّ رسول الله ﷺ ثلاث سنن جسَّدت رؤية الإسلام للآخر الدينى، وكيف أن الإسلام لا يكتفى بالاعتراف بالآخر الدينى وإنما يجعله جزءًا من الأمة والدولة، له كل الحقوق وعليه كل الواجبات.

أُولى هذه السنن - نموذجًا للعلاقة بالآخر اليهودى - هى الصحيفة التى وضعها رسول الله ﷺ عقب الهجرة، والمحاور الأساسية لهذه الصحيفة تدور حول المساواة والعدالة بين الفرقاء فى إطار الأمة الوليدة وبواكير الدولة الجديدة، كما تنص على أن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.

وثانية هذه السنن - نموذجًا للعلاقة بالآخر النصرانى - هى الوثيقة التى وضعها النبى ﷺ لنصارى نجران عهدًا بين الدولة الإسلامية الوليدة وبين النصارى، وفيها كتب رسول الله ﷺ: « لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض: جوار الله، وذمة محمد رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبِيَعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير أن أحمى جانبهم، وأذبَّ عنهم، وعن كنائسهم وبِيَعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح .. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى .. لأنى أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم .. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم!».

ويظهر لنا واضحًا من نَصِّ الصحيفة اعتراف الإسلام بالآخر، وقبوله، وتكريمه، والاندماج معه، واحترام خصوصياته.

[يمكن الرجوع لوثيقة المدينة مع اليهود ووثيقة نصارى نجران فى (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة)].

* وثالثة هذه السنن - نموذجًا للعلاقة بأهل الديانات الوضعية - كانت على عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين عرض أمر معاملة أصحاب الديانات الوضعية على مستشاريه بالمسجد النبوى فأشار عليه عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - قائلًا: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «سُنُّوا فيهم سنة أهل الكتاب» (راجع البلاذرى، فتوح البلدان، ص٣٢٧). وعُومل أهل الديانات الوضعية معاملة الكتابيين عبر تاريخ الحضارة الإسلامية.

* وهناك مواقف لا تحصى لتأكيد أن علاقة الإسلام بالآخر تقوم على السماحة والعدالة واحترام حقوقه.

* من ذلك أن القرآن الكريم أكد أن اختلاف الدين لا يجوز أن يكون مدعاة للظلم أو التغابن، وأنه إذا كانت هنالك أطراف معادية وبيننا وبينها خصام، فذلك كله يجب إبعاده عن مقتضيات العدالة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المائدة/ ٨ .

ولطالما احتكم مسلمون وغير مسلمين إلى القضاء الإسلامى فكانت العدالة تفرض نفسها دون تفرقة بين أطراف المتنازعين، يشهد لذلك عشرات المواقف العملية فى تاريخ الحضارة الإسلامية، من ذلك موقف عمرو بن العاص - رضى الله عنه - عندما كان واليًا على مصر فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - واشتبك ابن له مع أحد المصريين، وأغراه سلطان أبيه فضرب الرجل، ومصر يومئذ حديثة

عهد بالفتح، وكان المنتظر أن يستكين المضروب لابن القائد الفاتح الذى هزم أكبر دولة فى الأرض ورمى بجيشها فى البحر الأبيض، لكن المجنى عليه كان يأنس فى الإسلام وحكمه غير هذا الذى نزل به، فأقسم ليبلغن شكواه إلى أمير المؤمنين عمر- رضى الله عنه - لكن الولد الذى ضربه وجد فى هذا حماقة فقال له: افعل، فلن تضيرنى شكواك، أنا ابن الأكرمين!

وبينما كان عمر بن الخطاب بين خاصته وعمرو بن العاص وابنه فى مجلسه، والمدينة غاصة بالوفود فى موسم الحج، تقدم المصرى المظلوم وقال لعمر: يا أمير المؤمنين، إن هذا - وأشار إلى ابن عمرو - ضربنى ظلمًا، ولما توعدته بالشكوى إليك قال: افعل، فلن تضيرنى شكواك، أنا ابن الأكرمين!

فنظر عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص نظرة استنكار وقال له هذه الكلمة العظيمة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!». ثم توجه إلى الشاكى وناوله سوطه وقال له: اضرب ابن الأكرمين كما ضربك!

لقد أنصف سيدنا عمر - رضى الله عنه - الإسلام بهذا الحكم.

* ومن المواقف العملية التى تؤكد أن الإسلام دين يقوم على السماحة فى معاملة الآخر، وعلى احترام أواصر الإنسانية التى تجمع بين بنى آدم قاطبة:

* ما رواه البخارى عن جابر- رضى الله عنه - قال: مرت بنا جنازة فقام لها النبى ﷺ وقمنا، فقلنا: يا رسول الله إنها جنازة يهودى! فقال ﷺ: «أليست نفسًا؟!».

* وروى سفيان عن حماد بن أبى سليمان عن الشعبى أن أم الحارث ابن أبى ربيعة ماتت وهى نصرانية فشيعها النبى ﷺ.

* وأوصى رسول الله ﷺ بأهل الذمة، فقال: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ومن آذى ذميًّا كنت خصمه يوم القيامة».

* وحدَّث زيد بن سعنة - وهو من أحبار اليهود - أنه أقرض النبى ﷺ قرضًا كان قد احتاج إليه يسد به خللًا فى شئون نفر من المؤلفة قلوبهم، ثم رأى أن يذهب قبل ميعاد الوفاء المحدد للمطالبة بدينه، وقال: أتيته - يعنى رسول الله ﷺ - فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ، قلت له: يا محمد، ألا تقضينى حقى؟ فوالله ما علمتكم بنى عبد المطلب إلا مطلا، ولقد كان لى بمخالطتكم علم!

فنظر إلىَّ عمر وعيناه تدوران فى وجهه كالفلك المستدير، ثم رمانى ببصره فقال: يا عدو الله! تقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتصنع به ما أرى؟! فوالذى نفسى بيده لولا ما أحذر فوته لضرب سيفى رأسك.

ورسول الله ﷺ ينظر إلىَّ فى سكون وتؤدة، فقال: «يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا، أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن الطلب. اذهب به يا عمر فأعطه وزده عشرين صاعًا من تمر مكان ما رُعْتَه».

قال زيد: فذهب بى عمر، فأعطانى حقى وزادنى عشرين صاعًا من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر؟

قال: أمرنى رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك.

إن ترويع يهودى آذى صاحب الرسالة ﷺ بلسانه ويده لم يأذن صاحب الرسالة به، وأمر أن يبدله مكانه عوضًا تطيب به نفسه.

والحق أن الإسلام يوصد كل الأبواب أمام كل هؤلاء الذين يستهينون بأقدار الآخرين وحقوقهم.

*** الآخر وحقوق الإنسان فى الإسلام :**

لما كان الإسلام هو الدين الخاتم، وهو دعوة للناس كافة؛ فقد استوعب فى تشريعه كل الملل والشرائع الأخرى، وَشَرعَ الخالق - سبحانه وتعالى - حقوقًا للإنسان، فاقت كل ما أنتجه الفكر البشرى فى تشريعه لحقوق الإنسان، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنها التقت مع ما وصل إليه الفكر البشرى الناضج فى تشريعه لحقوق الإنسان.

فالإسلام قد كرم الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الإسراء/ ٧٠ .

ويمكن إجمال هذه الحقوق فى العناصر التالية:

* حق الحياة: فحرم الإسلام الاعتداء عليها، قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ المائدة/ ٣٢ .

* حق الحرية: قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ البقرة/ ٢٥٦ . وقال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ الكافرون/ ٦ .

* حق العدالة: قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾ الإسراء/ ١٥ .

وقال رسول الله ﷺ : «كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى».

* الأوضاع المدنية والأحوال الشخصية للأقليات تحكمها شريعة الإسلام إن هم تحاكموا إلينا: قال الله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ المائدة/ ٤٢ . فإن لم يتحاكموا إلينا

كان عليهم أن يتحاكموا إلى شرائعهم ما دامت تنتمى - عندهم - إلى أصل إلهى، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ المائدة/ ٤٣ . وقال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ المائدة/ ٤٧ .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

الإسلام والجمال

الإسلام يتعامل مع الحياة بكل جوانبها، ومع الإنسان بكل ملكاته، يتعامل مع قلبه كما يتعامل مع عقله، يتعامل مع جسمه وروحه ووجدانه وأحاسيسه ومشاعره، وكما أن للجسد جَوْعَةً يسدُّها الطعام والشراب، فللعقل جوعة يسدها العلم والفكر، وللقلب جوعة تسدها المشاعر والأحاسيس والوجدان . . وهكذا.

وإذا كان الإحساس بالجمال وتذوقه فطرةً أودعها الله فى النفس الإنسانية، فللقرآن كلمة فى هذا المعنى، فقد لفت القرآن الكريم انتباه الإنسان إلى الجمال الذى أودعه الله فى كل ما خلق، ليستمتع به الإنسان.

من ذلك الإشارة إلى ما فى الكون من مظاهر الجمال والزينة، فحين يُعَدِّدُ الله نعمه على الإنسان يذكر الجانب النفعى العملى ويتبعه بذكر الجانب الجمالى، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ الأنعام/ ٥، فهنا ذكر الجانب النفعى للأنعام، ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ النحل/ ٦، فهذا هو الجانب الجمالى. وفى سياق تعداد نعم الله على الإنسان - فى السورة نفسها - يقول الله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ النحل/ ٨، وفى آية تالية يذكر الله - عز وجل - نعمة تسخير البحر للإنسان، وذكر من جوانب التسخير الحلية التى تستخدم للزينة نتجمل بها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ النحل/ ١٤ .

وتقرن العبادة بالجمال والزينة فى القرآن الكريم، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأعراف/ ٣١ .

وحين تلفتنا آيات القرآن إلى النظر فى الكون تشير إلى ما فى هذا الكون من مظاهر الجمال والروعة، من ذلك قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ ق/٦ . وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ النمل/ ٦٠ .

وآيات القرآن نفسها قمة فى الروعة والجمال: جمال على مستوى الصوت المفرد، وعلى مستوى الكلمة، والآية، والسورة، وهذا باب واسع أُفردتْ له التصانيف فى علوم البلاغة العربية .

ولقد كان لهذا الجمال الرفيع فى القرآن الكريم أثر كبير فى نفوس المسلمين، مما ارتقى بمستوى الحس الجمالى فى فن الخط العربى، وفنون العمارة. والجمال فى العمارة الإسلامية يمكن أن نراه فى المسجد بقبابه ومآذنه ومحرابه وقبلته، ونرى فى العمارة الإسلامية جماليات تشكيلية فى النقوش والزخارف التى ارتقت إلى مستوى التجريد بعد أن كان السائد هو التجسيد. أيضًا هنالك جماليات تشكيلية فى الخط العربى بين الكوفى والفارسى والديوانى . . . إلخ، وأصبح الخط العربى فضلًا عن وظيفته اللغوية كتسجيل لأصوات اللغة، أصبح قيمة جمالية.

لقد وضعت المعجزة القرآنية الرائعة المسلمين أمام وعى جمالى جديد، نجد تجلياته فى الفكر واللغة والسلوك والعمارة والفن، ينطلق هذا الوعى من خالق الجمال: البديع، الذى كل جمال فى الوجود هو من آثار جماله، فالله - سبحانه وتعالى - له جمال الذات وجمال الصفات وجمال الأسماء وجمال الأفعال، والله - سبحانه وتعالى - له المثل الأعلى، وهو - سبحانه وتعالى - : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى/١١، فى كل شيء: فى القدرة، فى الرحمة، فى اللطف، فى

الجمال. . . وعن النبى ﷺ : «إن الله جميل يحب الجمال»، فمن كمال محبة الله وتوحيده: محبة الجمال والسعى إلى إدراكه، بل إن منتهى نعيم الآخرة عند المؤمن: رؤية وجه الله - عز وجل - الذى يفيض على وجوه الناظرين إليه نضرة وجمالًا، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ القيامة/ ٢٢-٢٣ .

كما يلفت القرآن الكريم انتباهنا إلى تمام الجمال فى مخلوقات الله، قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ الملك/٣ . وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ السجدة/ ٧ .

فالكون كله منظومة جمالية بكل معانى الجمال، ولطالما عبثت يد الإنسان بهذا الجمال فأفسدته، ويلفت القرآن الكريم انتباهنا إلى هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ الروم/ ٤١ .

والجمال الحقيقى هو الذى يتصل ويتفق مع الجمال الأعلى لله - عز وجل - فى حين أن الجمال الخادع هو الذى ينفصل عن الجمال الأعلى ويصبح قيمة سلبية، ندرك ذلك من قول النبى ﷺ : «إياكم وخضراء الدمن».

وهذا يؤكد حقيقة الرؤية الإسلامية للجمال بوصفه تكاملًا بين الظاهر والباطن، وليس المظهر الخارجى الخالى من الروح.

ولتوضيح هذه الفكرة يمكن أن نضرب مثلًا من واقع حياتنا: فالأزهار البلاستيكية لا يمكن أن تثير فى نفوسنا ما تثيره الأزهار الحقيقية التى تمتلك الرائحة وتتنفس معنا، وتثير فينا معنى الحياة، لا يمكن أن يستويا.

فالرؤية الإسلامية للجمال تمزج بين الجانبين، كما يشكل الإيمان بأن أهل الجنة يُبْعَثون فى صور وأحوال جميلة، ويعيشون فى نعيم مقيم،

فوصف الكؤوس والسرر ومنابر النور والجنات الواسعة ذات الأنهار والأشجار والرياحين والحور العين، كل هذا يشكل صورًا جمالية إبداعية تنتظر أهل الإيمان يوم القيامة، وفيها - أيضًا - تنمية لإحساس المؤمن بالجمال.

ويزداد الوعى بالجمال كلما ازدادت الصلة الإيمانية بالحق المبدع لكل جمال، حيث يرى تجليات الخالق فى جمال خلقه، فإذا ارتفعت النفس وسمت إلى مستوى النفس الجميلة استطاع الإنسان أن يدرك الجمال فى الأشياء، واستطاع أن يفعل الفعل الجميل، ويمكن أن نلمح هذه المعانى فى الآيات:

﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ الحجر/ ٨٥ .

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ المزمل/ ١٠ .

﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ المعارج/ ٥ .

ولنا أسوة فى سيدنا رسول الله ﷺ فى التطبيق العملى لمعانى الجمال، حين يأمر أصحابه بأن يهتموا بمظهرهم، فيقول النبى ﷺ : «من كان له شعر فليكرمه».

*** أين واقعنا من الجمال؟**

فإذا كان الإسلام يحث على الجمال والتجمل فى كل شىء، فلماذا لا نطبق ذلك فى حياتنا العملية؟ ونحرص على جمال اللفظ والمظهر، وجمال النفس والقلب، وتربية الأطفال على هذه القيم الجمالية؛ حيث إن لها أعظم الأثر فى إدخال السرور والسعادة والبهجة على النفوس.

وحسبنا أن نرى المفارقة العجيبة بين جمال صنع الخالق فى زرقة السماء وخضرة الأشجار وألوان الأزهار، وبين تلال القمامة فى شوارعنا!! وتكدس السيارات بلا نظام على جانبى الشارع، وخنق حركة المرور فيه، وشغل الأرصفة بأشياء شتى.

وكل هذه الصور عدوانٌ على الجمال، ولكن إذا لاحظنا جمال خلق الله ودقة النظام فيه، وتأسَّينا به فلن نجد شوارعنا تملؤها القاذورات، ولن نجد إشغالات المرور، ولن نجد من يخالف إشارات المرور ليتعدى حدود الطريق، ولن يؤذى الآخرين، كل هذه صور تطبيقية للجمال والبهجة فى النفوس.

إن الفرق بين الجمال والعشوائية فرق هائل يستحق منَّا أن نراجع أنفسنا وأن نتوجه نحو الجمال.

*** فى ديننا فسحة :**

- فى الحديث الصحيح المتفق عليه عن عائشة - رضى الله عنها - أن أبا بكر - رضى الله عنه - دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان بدُفَّين، فنهرهما أبو بكر فقال له النبى ﷺ : «دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد» وفى رواية الإمام أحمد زاد رسول الله ﷺ : «ليعلم اليهود أن فى ديننا فسحة، وأننى بعثت بحنيفية سمحة».

- وحديث النبى ﷺ الذى رواه البخارى بشأن العروس التى زفتها عائشة - رضى الله عنها - وكانت قريبة لها، إلى زوجها من الأنصار زفافًا صامتًا، فعاتبها النبى ﷺ بقوله: «يا عائشة، ما كان معهم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو!».

- وروى ابن حبان فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: كان فى حجرى (أى تحت رعايتى) جارية من الأنصار فزوجتها، فدخل علىَّ رسول الله ﷺ يوم عرسها، فلم يسمع غناءً ولا لهوًا، فقال: «يا عائشة، هل غنيتم عليها؟ أو لا تغنون عليها؟!» ثم قال: «إن هذا الحىَّ من الأنصار يحبون الغناء».

- وهل ننسى أن أهل المدينة استقبلوا رسول الله ﷺ ترحيبًا بمقدمه بأنشودة (طلع البدر علينا)؟!

– وروى ابن ماجة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أهديتم الفتاة؟» (أى: هل قدمتم لها هدية؟) قالت: نعم. قال: «أرسلتم معها من يغنى؟» قالت: لا. فقال رسول الله ﷺ: «إن الأنصار قوم فيهم غزل، فلو بعثتم معها من يقول:

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيُّونا نُحَيِّيكُمْ
وَلَوْلا الذهَبُ الأَحْمَـرُ ما حَلَّتْ بِوَادِيكُمْ»

المهم هنا أن النبى ﷺ هو الذى اقترح عليهم نص الأغنية!

وأخرج النسائى فى «عشرة النساء» أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة، تعرفين هذه؟!» قالت: لا، يا نبى الله. قال ﷺ: «هذه قَيْنَة (أى مغنية) بنى فلان. تحبين أن تغنِّيك؟» فغنتها (أى غنت لها). فنرى هنا الرسول الكريم ﷺ يقترح على السيدة عائشة رضى الله عنها أن تغنى لها هذه المغنية، ولو كان حرامًا ما فعله النبى ﷺ.

*** كلمة لا بد منها:**

إن ما ورد سابقًا من أحاديث نبوية شريفة بشأن الفن والغناء، إنما كان يوافق عليه النبى ﷺ لسموِّه، فلا ابتذال ولا تجريح، ولا خضوع بالقول، وكان الغناء بالصوت لا بالجسد، أما ما نراه اليوم من أن الغناء فى الأعم الأغلب لم يعد يُسْمَع بل أصبح يُرَى مع ما يصاحبه من عرى وإسفاف وابتذال، بل إن بعض المغنيات قد تبدى إشارات جنسية فاضحة . . . وغير ذلك من وجوه الابتذال والتهتك والانفلات، فمثل هذا الانفلات لا يُستدَلُّ على حِلِّه بما أحله رسول الله ﷺ. ليس هذا كذاك!

ونخلُص من ذلك إلى أن الإسلام يشجع الفن حين يكون بنَّاءً يبنى القيم والخلق، ويعلِّم الناس الفضائل، لكن الإسلام ضد الهدم والإفساد، والفرق بين الحالتين واضح.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

الإسلام وحرية الإبداع

ما أكثر الدعاوى الباطلة التى أُلصقت بالإسلام، فمن قائل: إن الإسلام يحجر على العقل، وقائل: إن الإسلام يقيد حرية الإنسان وحرية الإبداع... إلى آخر هذه الأباطيل التى تكشَّفَ زيفها وحنقها على الإسلام أو جهل أصحابها بهذا الدين.

وقبل أن نتحدث عن حرية الإبداع فى الإسلام، سنحاول تحديد المفهومين:

*** الحرية، والإبداع:**

والحرية فى الإسلام تعنى: والتخلص من كل القيود، بما يتيح للإنسان فرصة الارتقاء وتحقيق الرسالة المنوطة به، رسالة تعمير الأرض لا بالنسل والزراعة والصناعة فحسب، بل أيضًا تعميرها بالمعانى العظيمة والأفكار المتطورة التى تضيف إلى الحياة البعد الإنسانى.

إن أول ما يحرص عليه الإسلام هو تحرير الإنسان من كل عبودية أو خضوع لغير الله - عز وجل - حرية النزوع الفطرى فى الإنسان إلى السمو والرقى، بدءًا من حرية الاعتقاد وانتهاء بحرية الرأى والقول والفعل. إن الخطوة الأولى نحو الحرية تبدأ من سقوط الأصنام.. كل الأصنام التى تذل الإنسان أو يذل هو كرامته لها.. أصنام الآلهة المزيفة، والأصنام البشرية بكل أشكالها من حكام وكهنة وسحرة ولصوص وأشقياء، والأصنام التى تسكن داخل النفس الإنسانية من الشهوات القاهرة والنزغات المهلكة.. أسقط الإسلام كل هذه الأصنام منذ كانت دعوته ﷺ إلى ترك عبادة الأصنام والاعتراف بوحدانية الله، وأنه لا إله إلا الله، وكانت آخر مرحلة من مراحل سقوط الآلهة المزيفة بِمِعْوَل الدين الحق عند دخول الرسول ﷺ مكة، وتحطيمه الأصنام التى وضعوها حول الكعبة كرمز لسقوط كل ألوان العبودية المذلة، والدخول

فى العبودية لله الحق.. فكان فتح مكة فاتحة عصر جديد يحمل فكرًا جديدًا وقيمًا جديدة . . . وكان من بين أهم هذه القيم: الحرية.

فماذا عن مفهوم الإبداع من المنظور الإسلامى؟

يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ المؤمنون/ ١١٥ .

إنما خلق الله الإنسان ليكون خليفة له فى الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة/ ٣٠، ثم أمد الله خليفته بإمكانات لم يؤتها أحدًا من خلقه:

آتاه العلم: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ البقرة/ ٣١ .

ثم أسجد له الملائكة رمزًا للتكريم والتشريف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ البقرة/ ٣٤ .

ثم منَّ الله على الإنسان بنعم لا تحصى: العقل والإرادة والقدرة العضلية والمخيلة (المقدرة على الابتكار) ؛ لأن الإنسان لن يكون مجرد كائن فى كون الله، بل كائن له طبيعة خاصة وقدرات خاصة تناسب رسالته وكرامته عند الله.

وجاء الإنسان ليضيف إلى الحياة بما أوتى من الإرادة الحرة والقدرات الخلاقة أبعادًا جديدة، ليبدع. والإبداع يتخذ مظاهر كثيرة: الإبداع الفكرى، والإبداع العلمى، والإبداع الفنى؛ أليس الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/ ٣٦ .

لا أحد يستطيع أن ينكر أن الإسلام قد أعطى الأمة العربية انطلاقات كبيرة، وأمدها بطاقات جبارة، فلأول مرة فى تاريخ العرب يكون لهم دولة واحدة ونظام سياسى واضح الملامح، هذه الدولة التى امتدت بالفتوحات الإسلامية لتصبح دولة مترامية الأطراف وحضارة متميزة عن

كل ما سبقها ولحقها من حضارات، لقد أطلق الإسلام كل قوى الإبداع التى كانت معطلة أو مخبوءة تحت ستار من الخرافات والضلالات والجهل والتشرذم والبدائية، جاء الإسلام منهاجًا لحياة الإنسان الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية، فدبَّت الروح فى الملكات الإبداعية عند الناس، فانطلقوا فى فجاج الأرض وأسقطوا حضارتين: حضارة الفرس وحضارة الروم، ليحلوا محلها حضارة الإسلام العملاقة .. انطلقوا يزرعون ويصنعون ويبدعون فى كل مجالات الإبداع: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ العنكبوت/ ٢٠ .

والتاريخ شاهد على ما أنجزه المسلمون من إبداعات فى مجال العلم، فكان منهم علماء الكيمياء مثل: (جابر بن حيان وابن النفيس وغيرهم) والطبيعة والهندسة مثل: (الحسن بن الهيثم) والطب مثل: (الرازى والزهرى وغيرهما كثيرون)، والفلسفة الإسلامية التى كانت فى عصرها ذروة للفكر الراقى والتأمل فى كون الله، فكان هناك ابن رشد وابن سينا والكندى والفارابى، وغيرهم. وكانت الفلسفة الإسلامية أبنية فكرية شامخة لا تقل عن الفلسفة اليونانية فى عمقها وشمولها، بل تتجاوز منجزات اليونان الفكرية والعقلية.

ثم الإبداع الفنى، لقد كان للعرب قبل الإسلام فن واحد هو الشعر، وبعد الإسلام تطور الفن العربى القديم، ونشأت أنواع فنية جديدة، برز دور الخطابة والنثر، والكتابة النثرية، فكان الجاحظ وأضرابه نموذجًا للكاتب الموسوعى، حتى تجاوزت مؤلفات الجاحظ ثلاثمائة كتاب ما بين بحث علمى طبيعى، وعلوم إنسانية كالنقد والتاريخ، ورسالة فنية كالرسائل المعروفة باسم رسائل الجاحظ.

لقد تطور الشعر العربى بعد الإسلام حتى وصل هذا التطور قمته عند أبى الطيب المتنبى وأبى تمام وأبى العلاء المعرى، وظهرت مذاهب فنية جديدة وتيارات فنية كاملة. ولم يكن الشعر - بوصفه الفن العربى الأول والأهم - ترفًا فى حياة الناس، بل كان جزءًا لا يتجزأ من حياتهم . . وقد تطور الشعر العربى قلبًا وقالبًا أو شكلًا وموضوعًا بعد الإسلام، تطورت الأفكار والمعانى وانطلقت القصيدة العربية من ضيق الصحراء إلى رحابة الحياة فى ظل الحضارة، وحسبنا أن نلقى نظرة على الشعر العربى فى الأندلس الإسلامية لندرك القفزة الكبيرة التى انتقلت بالشعر من جو البادية إلى أجواء الحضارة، ومن الخيال الساذج إلى الخيال المُحَلِّق الممتزج بالفكر العميق والرؤية الواضحة.

ليس الشعر وحده هو الذى تطور بعد الإسلام، بل تطورت الخطابة، فظهرت الخطابة السياسية والتعليمية، ولم تكن الخطبة قبل الإسلام أكثر من جمل مسجوعة متوازنة، والأفكار التى تحملها لم تكن أكثر من نعرات قبلية بدائية، فصار لها فى الإسلام موضوعات جديدة اجتماعية ودينية وسياسية، واهتمامات وأفكار جديدة، والأمثلة كثيرة . . خذ مثلًا خُطَب الخلفاء الراشدين وبخاصة الإمام على، وخطب معاوية، وواصل ابن عطاء، والحجاج بن يوسف الثقفي وغيرهم من كبار الخطباء.

وظهرت فنون جديدة على العربية، مثل فن الرسالة كرسائل الجاحظ، وفن المقامة كمقامات بديع الزمان الهمذانى والحريرى، وهناك القصة الفلسفية مثل (حى بن يقظان) التى كتبها الفيلسوفان المسلمان ابن طفيل وابن سينا، وأدب الرحلات الذى كان علمًا وأدبًا فى آن واحد مثل كتابات المسعودى وابن بطوطة وغيرهما من الرحالة المسلمين.

كل هذا يدلنا على حقيقة أن الإسلام أطلق الملكات من عقالها،

وفتح الأبواب كلها أمام الإبداع والمبدعين فى كل نواحى الحياة الإنسانية، فنشطت العقول، وانطلقت القدرات الابتكارية لتبدع وتضيف وتصوغ فكرًا جديدًا وقيمًا جديدة وحضارة جديدة.

والذين يدَّعون أن الإسلام قيد حرية الإبداع أو حجَّمها لا يستطيعون أن يدللوا على دعواهم بمثال واحد.. إن أحدًا لم يذكر أن كتابًا أحرق فى تاريخ الإسلام، أو أُدِين مفكر أو عالم أو مبدع، إلا ما كان من أمر الحلاج، فأين الحجر على العقل وأين القيود التى فرضها الإسلام - دينًا أو نظامًا سياسيًّا - على حرية الإبداع؟!

وإذا كانت حرية الإنسان فى اختيار دينه مكفولة بنص القرآن: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾ الكافرون/٦ . فكيف يطلق الإسلام أهم الحريات - حرية الاعتقاد - ويقيد حرية الإبداع أو حرية الرأى والفكر؟! فقط وضع الإسلام ضوابط لتنظيمها وحمايتها من الأهواء التى قد تضر بالإنسان.

ومن الثابت عن الرسول ﷺ أنه كان يحب الشعر الجيد ويستزيد منه، وأنه كان يحب شعر الخنساء، بل كان يحب شعر عدوه أمية بن أبى الصلت، وهذه مسألة بينها عبد القاهر الجرجانى فى كتابه (دلائل الإعجاز) بالتفصيل، ومن الثابت عن الرسول ﷺ أيضًا أنه كان دائم الدعوة إلى الابتكار والإبداع فيما يتعلق بشئون الحياة الدنيا، وكان يقول لأصحابه: "أنتم أعلم بشئون دنياكم".

وكان دائمًا- وهو المعصوم- يحاور أصحابه ويستشيرهم ويعمل بآرائهم ليعلمهم الحرية فى الرأى والاستقلال فى الفكر.. يقول ﷺ: «لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا».. فالإنسان له شخصية مستقلة ورأيه مسموع وحريته مكفولة.

إن الإسلام منهج إلهى يدعو إلى الارتقاء بالإنسان وبالحياة من حوله، والإبداع الإنسانى هو الوسيلة إلى هذا الارتقاء، لذلك فهو يدعونا بل يفرض علينا أن نتدبر ونتأمل فى الكون وآيات الله فيه، لنستطيع أن نتجاوز الواقع ونطوره فنعرف الله حق المعرفة ونعبده حق العبادة.

وحرية الإبداع الإنسانى فى الإسلام مكفولة بلا شرط أو قيد، إلا أن يكون هذا الإبداع لصالح الإنسان وخطوة من خطوات رقيه وتطوره؛ لهذا أبدع الإنسان المسلم علومًا وفنونًا وفلسفات، ولم يبدع أسلحة تدمير؛ ولم تقدم الحضارة الإسلامية ما قدمته الحضارات الأخرى من ألوان المتع الرخيصة التى تهبط بالإنسان.. من مسكرات ومخدرات وجنس، وكل ألوان المغيبات وغيرها مما يعطل مسيرة الإنسان نحو التطور والارتقاء، بل قدمت لنا الحضارة الإسلامية إبداعًا خلاقًا نافعًا من علوم مزدهرة، وفكر راق، وفن بديع.

والنصوص التى تدعونا إلى التفكر والتأمل كثيرة وفيرة فى القرآن والسنة نذكر منها الآيات:

- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ العنكبوت/ ٢٠ .
- ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ البقرة/ ٢٦٦ .
- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ الروم/٨ .
- ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ آل عمران/ ١٩١ .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

البحث العلمى ضرورة حضارية

الصراع الرهيب المفروض على الأمة فى واقعها المعاصر فى مواجهة الحضارة الغربية يحتم علينا أن نطرح على أنفسنا هذا السؤال:

كيف تعاظم الفارق بيننا وبينهم حتى كانت لهم السيادة والهيمنة، وكانت لنا التبعية والضعف والهوان؟!

وقراءة الواقع فيما يتعلق بالأبحاث العلمية المتخصصة فى العلوم والتكنولوجيا تفسر لنا هذه الإشكالية .. فآخر الإحصاءات عن النسبة المئوية للأبحاث العلمية على مستوى العالم والتكنولوجيا ترصد لنا الأرقام التالية:

١- ٣٧ ٪ (سبعة وثلاثون فى المائة) لمجموع الدول الأوربية.

٢- ٢٥ ٪ (خمسة وعشرون فى المائة) للولايات المتحدة الأمريكية وحدها.

٣- ٤,٨ ٪ (أربعة وثمانية من عشرة فى المائة) لإسرائيل.

٤- ٠,٠٢ ٪ (اثنان من مائة فى المائة) للدول العربية مجتمعة!!

وتذكر الإحصاءات أيضًا أن الإنفاق على البحث العلمى فى إسرائيل يتفوق على مثيله فى مصر بأربعة عشر (١٤) ضعفًا، حيث تنفق إسرائيل ٤,٨ ٪ (أربعة وثمانية من عشرة فى المائة) من إجمالى الدخل القومى على البحث العلمى والتطوير، فى مقابل أن مصر تنفق ٠,٢٢ ٪ (اثنين وعشرين من مائة بالمائة) من إجمالى الدخل القومى!!

والمحزن أن هذه الأرقام قد تغيرت لصالح إسرائيل فى تقرير ٢٠٠٤م.

ومن هنا ندرك الفارق الذى جعل لهم السيادة والهيمنة، ومن هنا أيضًا ندرك أن البحث العلمى ضرورة حياتية وضرورة حضارية للأمة إذا

أحبت أن تأخذ بأسباب المنافسة الجادة . . أما أن نجلس ونتغنى بأمجاد الماضى، دون أن نكون على مستوى المواجهة اللاهبة فى واقعنا المعاصر، فإن هذا لا يعفينا من مسئولية التخلف عن ركب المنافسة والقدرة على الصراع والمواجهة، وأيضًا لا يحقق لنا أى طموح على مستوى الواقع.

والعجيب أن واقعنا يتناقض مع القرآن الكريم الذى دعانا إلى العلم والتدبر والنظر والتأمل فى كون الله تعالى لنفقه هذا القرآن المنظور فى كون الله تعالى ، وكى ننتفع بسنن الله الكونية ، فالمسلمون أولى الناس بأن تكون لهم المقدمة . لكن المقدمة بين الأمم لا تتأتى بالأمانى وإنما بالعلم والعمل والتضحية.

ولعل فى هذا التقرير الذى نشرته صحيفة معاريف الإسرائيلية بتاريخ ٢/ ٩/ ٢٠٠٤ جرس إنذار يهيب بنا أن نستيقظ من غفلتنا. وهذا نص التقرير:

إسرائيل تتصدر دول العالم
فى معدلات الإنفاق على الأبحاث العلمية والتنمية

معاريف ٢/ ٩/ ٢٠٠٤

بقلم: يوسى جرينشتاين

أظهرت المعلومات الصادرة عن وزارة المالية الإسرائيلية أن معدل الازدهار فى إسرائيل هو الأعلى بين كل دول العالم النامية. . ليس هذا وحسب، بل إن الإنفاق على البحث العلمى والتنمية فى إسرائيل خلال السنوات الماضية، هو الأعلى على مستوى العالم، حيث بلغ ٤,٨ ٪ من الدخل القومى للدولة، بما يجعله ضعف هذه النسبة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وثلاثة أمثالها فى بريطانيا، وخمسة أمثالها فى فرنسا.

وعن مقارنة نسبة الإنفاق على البحث العلمى والتنمية فى إسرائيل وفى عدد من الدول الأخرى، جاء فى البيانات الصادرة عن وزارة المالية الإسرائيلية، أن هذه النسبة قد وصلت فى إسرائيل إلى ٤,٨ ٪ من مجمل الدخل القومى (أى نحو ٥ مليارات دولار) فيما نجدها ٤,١ ٪ فى السويد، ٣٪ فى اليابان، ٢,٤ ٪ فى ألمانيا، ٢,٣ ٪ فى الولايات المتحدة الأمريكية، ١,١ ٪ فى إيطاليا، بينما تنسب أقل هذه النسب لأسبانيا والبرتغال واليونان، حيث تتراوح نسب الإنفاق ما بين ٠,٧٪ و ٠,٩ ٪ من مجمل الدخل القومى.

*** نمو طفيف فى معدلات الاستثمار:**

تأتى إسرائيل كذلك فى صدارة الدول من حيث صافى ناتج الصناعات التكنولوجية المتقدمة، حيث يبلغ ١٢,٩٪ من صافى إنتاج قطاع الأعمال فى إسرائيل فى مقابل ٧,٨٪ فى الولايات المتحدة الأمريكية، ٤,٨ ٪ فى إنجلترا، ٥,٨ ٪ فى اليابان، ٤,١٪ فى أستراليا.

من الواضح أن الشغل العظيم للصناعات التكنولوجية فى الاقتصاد الإسرائيلى، جعلها ذات تأثير بالغ فى مؤشرات سوق المال والصناعات التكنولوجية على الصعيد العالمى. فلقد أدى الانخفاض الحاد فى مؤشر سوق المال «نساداك» فيما بين ٢٠٠٠، ٢٠٠٢ إلى تقليص معدلات الاستثمار فى شركة «ستار إف» فى إسرائيل - وهو ما حدث أيضًا فى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد كان لهذا الانخفاض دوره فى الإضرار بالصناعات التكنولوجية المتطورة وزيادة الركود الاقتصادى.

تجدر الإشارة إلى أن الانتعاش الذى سجله مؤشر نساداك منذ نهاية عام ٢٠٠٢ قد انعكس بالإيجاب على حجم الاستثمارات فى شركة «ستار إف» حتى مارس ٢٠٠٤- وإن كان هذا الارتفاع لم يصل إلى ذروته.

*** معدلات النمو الاقتصادى تصل إلى ٣,٨ ٪ فى عام ٢٠٠٥ :**

تتوقع وزارة المالية الإسرائيلية أن تكون معدلات النمو الاقتصادى فى إسرائيل عامى ٢٠٠٤ و ٢٠٠٥ على رأس هذه المعدلات فى الغرب. بحيث تصل إلى ٣,٨٪ عام ٢٠٠٥ فى دول العالم المتقدمة، ويشار كذلك إلى أن الصناعات التكنولوجية الإسرائيلية هى عماد الصادرات الإسرائيلية فلقد بلغت نسبة هذه الصناعات ٧٣ ٪ من معدل الصادرات عام ٢٠٠٣، كما كانت ٦٥ ٪ عام ١٩٩٥ و ٧٧٪ عام ٢٠٠٠ .

[عن مجلة مختارات إسرائيلية: مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، السنة العاشرة، العدد ١١٨، أكتوبر ٢٠٠٤].

وصح النوم يا عرب !!

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

التعصب انتحار للعقل

أصل التعصب فى اللغة: أن يدعوَ الرجل إلى نصرة عَصَبَتِهِ (أى قومه) والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين.

ولا يخرج المعنى الاصطلاحى المتعارف عليه للتعصب فى زماننا عن هذا الفهم؛ ذلك أن التعصب يعود إلى خلل فكرى يدفع بعض الناس إلى توهم أفضليته على غيره، أو تصور أنه وحده هو الذى يملك الحقيقة والصواب، وأن غيره ينبغى أن يتبعه.

والتعصب جمود فى العقل وانهيار للفكر؛ لأنه لا يسمح بالتعددية الفكرية، وسنة الفكر أن الآراء يقدح بعضها بعضًا، ومن خلال التعددية نصل إلى الأفضل ونقف على السلبيات والعيوب فى الآراء المعروضة.

أيضًا التعددية فى الفكر تعمِّق الفهم للمسائل، لأن المسألة حينئذ تُرَى من زوايا ووجوه متعددة، فى حين أن الجمود على فكرة واحدة أو وجه واحد يقتل بقية الآراء والأفكار.

وقد وضع الإسلام الأساس النظرى للمساواة بين البشر، فالأصل واحد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ الحجرات/ ١٣ . واختلاف الألسنة والألوان من آيات الله الدالة على عظمته وقدرته: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ هود/ ١١٨ . ولكن شاءت قدرة الله أن تتعدد الأجناس والألوان والألسن، دون أن يكون هذا سببًا فى تفضيل بعض الناس على بعض، إنما الميزان الذى به يتفاضل الناس هو: التقوى، وحسن الخلق، وهو ما قاله النبى ﷺ لواحد من خيرة الصحابة - رضوان الله عليهم - وهو سيدنا أبو ذر الغفارى - رضى الله عنه - قال له النبى ﷺ : «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود، إلا أن تَفْضُله بتقوى الله».

والتعصب جاهلية مقيتة، حسمها الإسلام وقضى عليها من جذورها، قال رسول الله ﷺ: «إن أنسابكم هذه ليست بمنسبة على أحد، كلكم بنو آدم، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو تقوى».

وذم النبى الكريم ﷺ العصبية والتعصب فى كثير من أحاديثه، ومن ذلك قوله ﷺ: «ليس منَّا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منَّا من مات على عصبية».

إن طوق النجاة لهذه الأمة فى حياتنا المعاصرة يكمن فى وعى الأمة بدورها فى صياغة مشروع حضارى متميز يستفيد من الحضارات الأخرى ويضيف إليها، ولا يمكن ذلك إلا من خلال إبداع العقول والاجتهاد والتجديد، ولا يكون ذلك أبدًا مع التعصب والانغلاق وضيق الأفق الفكرى، أو بتكفير المخالفين؛ لأن هذا ضد حضارة الإسلام وضد مسيرة الوعى ورحلة المعرفة والاجتهاد.

فالتعصب انغلاق وعزلة . . . إنه الموت.

* **دوافع التعصب:**

- **الجهل**: فبيئة الجهل من أقوى أسباب العصبية والتعصب.

- **الاستسلام** للعادات الضالة والتقاليد الفاسدة: وقد نعى القرآن الكريم على من غلبت عليهم روح القبلية وعاداتها فرفضوا الإسلام بحجة أنهم أوفياء لما كان عليه آباؤهم وأسلافهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ البقرة/ ١٧٠ .

كما بيَّن الإسلام أن الأساس الذى نلتقى عليه فى التعاون والمناصرة هو البر والخير والتقوى، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة/ ٢، يؤكد القرآن ذلك حيث جعل المناصرة بين المؤمنين تكون على حق وخير، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ التوبة/ ٧١ .

وعدَّ النبى ﷺ ميتة المتعصب ميتة جاهلية، فقد أخرج مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عميَّة يغضب لعصبة أو يدعو إلى عَصَبة أو ينصر عَصَبَةً فقُتِل فقِتْلَةٌ جاهلية».

كما أبطل الإسلام التفاخر بالآباء ومآثر الأجداد، أخرج الترمذى أن رسول الله ﷺ قال: «لينتهينَّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا . . . إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية، إنما هو مؤمن تقىٌّ، وفاجر شقىٌّ، الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب».

- الظلم والقهر وغياب العدالة:

حيث يتسبَّب الظلم والقهر وغياب العدالة فى كراهية من وقع عليه هذا الظلم والقهر للظالم ورفض كل ما يتصل به، والوقوع فى العناد والتعصب؛ ولذلك أمرنا الإسلام والقرآن ألا نسُبَّ الآخرين، وألاَّ نحمل عليهم بالباطل إذا ما جادلناهم، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ﴾ النحل/ ١٢٥، وأمرنا أن نلتزم العدالة، حتى مع المخالفين والأعداء، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ۚ﴾ المائدة/ ٨ .

- سوء الفهم:

فسوء الفهم وقلة الوعى بالآخر يوقع الإنسان فى التعصب، حيث يصل الإنسان إلى نتيجة مضللة لا تمثل الواقع ولا الحقيقة.

ولذلك ينبغى على الإنسان العاقل أن يفهم الطرف الآخر قبل أن يحكم عليه أو يتوجَّه إلى الردّ، ويا حبذا لو استوضح منه مراده، فربما أخطأ الطرف الآخر فى التعبير عن مراده، والمواقف من حياة النبى ﷺ والصحابة خير شاهد ودليل على هذا، فحين أعلن عمار بن ياسر كلمة الكفر بسبب اشتداد الإيذاء عليه، أسرع بعض الصحابة إلى رسول الله ﷺ فزعين وقد هالهم أمر كفره، فاستوضحه النبى ﷺ وقال له: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان، فأنزل الله قوله - عز وجل - :

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ النحل/١٠٦ .

يدخل فى سوء الفهم سوء فهم النصوص الدينية، فكثير من مواقف التعصب تأتى من سوء فهم النصوص الدينية وعزلها عن سياقها، ليجد المتعصب فيها دليلًا على تعصبه.

وقد أبطل الإسلام كل دوافع التعصب وقضى عليها، ودعا إلى التسامح والتعاطف والتراحم والرفق، قال رسول الله ﷺ : «ما كان الرفق فى شىء إلا زانه، ولا نزع من شىءٍ إلا شانه»، وقال ﷺ : «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله».

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾

التفكير فريضة إسلامية

كثيرةٌ هى الآيات التى تحث الإنسان على التأمل والتدبر والتعقل؛ ليكشف أسرار المخلوقات؛ وليقف على عظمة تدبيرها، من ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾آل عمران/ ١٩٠ .

وأخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ تحدث مع أهله ساعة من الليل ثم رقد، فلما كان ثلث الليل قعد فنظر إلى السماء فتلا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ ثم قام فتوضأ، ثم استن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح، ثم قال ﷺ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها».

والقرآن الكريم يمدنا بتفصيلات للتفكير فى عظيم مخلوقات الله تعالى، من ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ الملك/ ٣ .

والتفاوت: الاختلاف وعدم التناسب، والخلل.

والفطور: الخلل من شقوق وصدوع ... إلخ.

ومن آيات القدرة أيضًا التى يلفت القرآن أنظارنا إليها ما جاء فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ القصص: ٧١-٧٣ .

*** ثمرات التفكير فى خلق الله:**

وإن كان أحدنا يقف متأنيًا أمام إنجازات البشر من لوحات فنية أو مشروعات عظيمة يقلِّب نظره وعقله بين جمالها وعناصر تكوينها ومنافعها .. إلخ، فكيف بالإنسان يمر بالآيات الإلهية فى كون الله تعالى ولا يلتفت إليها ولا يفكر فى عظمتها ولا يتأملها تأملًا إيمانيًّا ليرى فى عظمة المخلوقات دليلًا على عظمة الخالق تعالى، وأيضًا ليثمر التفكر والوقوف على قيمة مخلوقات الله تعالى التى سخرها للإنسان، والوقوف على قيمة هذه النعم يحمل الإنسان على شكر المنعم عليها. ولقد ربط القرآن الكريم بين مسألة الخلق والإيمان بالله ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ لقمان/ ١١.

أيضًا من ثمرات التفكير التعرف على أسلوب التعامل مع هذه المخلوقات والاستفادة منها فى معرفة نواميس الكون والحياة فتكون المخترعات والاكتشافات التى تعود بالخير على البشرية.

وفى مقابل مدح الله للمؤمنين الذين يتفكرون فى آيات الله الدالة على عظمته فقد ذم الله تعالى الغافلين الذين لا يتفكرون فى مخلوقاته الدالة على عظمته وقدرته، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ يوسف/ ١٠٥

ولقد حثنا القرآن على التفكير المتأنى الذى يتسم بالمنهجية والعلمية، فجاءت آيات كثيرة دعوة إلى التأمل والتفكير والتدبر، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ - ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ - ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

صراع المعلومات والمعرفة

لا قيمة للمعلومات إلا إذا أدى تراكمها إلى قدر من المعرفة، ولا قيمة لمعرفة لا تؤدى إلى إصلاح المجتمع وأحوال الناس.

هذه الحقيقة التى تمخضت خلال القرنين القرن العشرين «قرن المعلومات» والقرن الحادى والعشرين «قرن المعرفة». هذه الحقيقة أكدها رسول الله ﷺ فى قوله: «من طلب العلم ليجادل به العلماء، ويمارى به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله النار»، فصرف العلم عن غايته عدوان على قيمته، وجريمة فى حق المجتمع.

ويتميز عصر المعرفة بالتحول من منهج التعليم التلقينى إلى منهج التعلم الممتد طوال الحياة، ولا يقتصر العلم على سن معينة، فقد تعلم أصحاب رسول الله ﷺ فى كبر سنهم، وقال النبى ﷺ فى منهج التعلم المستمر: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد».

وهذا يؤكد الفارق بين التعلم عن طريق الإبداع و الابتكار والتفكر فى كل ما يقرأ المرء أو يسمع بروح نقدية وتفكير تحليلى، والتعليم المدرسى الذى ينحصر فى الحفظ وتراكم المعلومات وقياس تذكرها للحصول على شهادة ينسى بعدها الفرد ما حفظ دون إفادة من هذه المعلومات.

والتراث الإسلامى يؤكد هذه الحقيقة المعرفية بالحكمة القائلة: «ليس العالم الذى يحفظ من كتاب فإذا أنسى ما حفظ صار جاهلًا».

ويحرص مجتمع المعرفة على إتاحة المعرفة لكل الناس، و قد حث النبى ﷺ على نشر المعرفة بقوله: «بلغوا عنى ولو آية».

والاقتصاد فى مجتمع المعرفة قائم على المعرفة التى تؤدى إلى التميز والجودة والإتقان، وصدق رسول الله ﷺ : «العلم والمال يستران كل عيب، والجهل والفقر يكشفان كل عيب».

والله - سبحانه وتعالى - فى القرآن لم يأمر نبيه بطلب الزيادة فى شىء من دنيا الناس ولكن أمره بطلب الزيادة فى العلم، إذ قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه/ ١١٤ .

وواقعنا يشهد بأن الخلل فى أننا ندور فى دائرة الكلام، بعيدًا عن ساحة الفعل، وأننا نفتقد الإنسان الذى يستجيب لهدى القرآن، ويحول آياته إلى واقع عملى، أما أن نقرأه نغمًا ونسمعه طربًا ولا نستجيب له سلوكًا وعملًا، فهذه جريمة فى حق ديننا وقرآن ربنا وسنة نبينا ﷺ، وهذه أمثلة من التناقض الصارخ الذى تعيشه الأمة فى حياتها المعاصرة:

* القرآن دعانا للعمل فى مئات الآيات، فى حين أن صافى ساعات العمل اليومى للعامل فى بلادنا لا تتجاوز ساعة يوميًا حسب آخر الإحصاءات.

* القرآن دعانا إلى الإتقان والتميز، قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة/ ١٩٥ .

* والقرآن دعانا إلى مجاهدة النفس ومخالفتها وحملها على التماسك والتعاون، فما بالنا نتمزق ونتفرق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد/ ١١ .

* وما لم نعمل بما نعلم، وما لم تثمر المعرفة عندنا إصلاحًا لكل خلل بالمجتمع، فقد أسأنا لأنفسنا وتخلفنا عن موقع المنافسة فى صراع المعلومات والمعرفة، وأسأنا إلى ديننا العظيم الذى عظَّم قيمة العلم والمعرفة.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

دعوة لاقتحام المستقبل

المحنة التى تمر بها الأمة استبحر الكتاب والمتحدثون فى وصفها، وكل التحليلات تأتى إجابة عن السؤال: ماذا يحدث؟ وما المشكلة؟ ولا يرقى الحديث إلى الإجابة عن السؤال: كيف الخروج من المشكلة؟ وكيف نقتحم المستقبل؟

وأتساءل: إلى متى سيظل حديثنا متجمدًا عند وصف الهموم والمشاكل والعقبات؟

وكيف يدخل المسلمون - وهم على كف الزمن - ساحة المستقبل الذى تتلاحق فيه الانفجارات العلمية الهائلة؟

وهل باستطاعتنا أن ننتزع مكانًا؟

ومتى تكون لحظة الإقلاع الحضارى فى ميادين السياسة والاقتصاد والقوة العسكرية بعد أن طال زمن الرتابة والجمود والانكفاء على الماضى؟!

هل سنكون فى الوجود المستقبلى فى دور المشارك فى حركة الحياة؟ أم سنظل (موالى) نخدم الآخر؟!

وينبغى أن نوقن بقانون هذه الحياة وسنن الله الجارية فيها، التى تحكم القدماء والمحدثين جميعًا، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ البقرة/ ١٣٤ .

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ النور/ ٥٥ .

والعمل الصالح هنا ليس مقصورًا على العبادات المعروفة، وإنما

يشمل - مع ذلك - إتقان العمل وإجادته، وسائر الأعمال النافعة فى دنيا الناس.

ودخول المستقبل مشروط بالعلم؛ فلا تقوم حضارة على جهل، ومشروط بإحياء قيمة العمل؛ ومشروط بقيم الحرية والعدالة واحترام الوقت، بدلًا من العشوائية وأحادية التفكير وأسلوب القمع والتعذيب والتهديد. وغياب الحرية يهدد باغتيال المستقبل العربى والإسلامى.

وعلى المستوى السياسى، لا بد أن نعود إلى التماسك، ونتخلّى عن الصراعات، وينبغى أن تكون لنا رؤية مستقبلية نحدد فيها الأهداف، كما ينبغى أن ننتبه إلى معوقات خطيرة تمنعنا من اقتحام المستقبل، ومن أخطر هذه المعوقات: العزلة عن عالم الحضارة؛ فالعزلة موت، وينبغى أن نفرق بين المحافظة على الخصوصية وبين الانطوائية والعزلة.

ومن المعوقات الخطيرة لاقتحام المستقبل: التقابل المغلوط بين العقل والنقل؛ إذ لا تعارض، والتعارض جاء من علل فكرية انتقلت إلينا من عصور الضعف والخمود . . إن واهب العقل هو واهب الوحى، ولا تعارض بين كتاب الله المنزل على رسول الله ﷺ وبين كتاب الله المبثوث فى الكون. وإن كارثة إغلاق باب الاجتهاد ينبغى أن تزول من حياة الأمة، وإن حملة الرسالة من الدعاة العلماء الأتقياء العقلاء مطالبون بترتيب الأولويات، ومطالبون بأن يعيشوا تقنية العصر وأدواته من علوم الاتصال وفنونه، إذا أردنا أن يكون لنا على خارطة المستقبل موقع.

والفائز من يدرك دوره، ويعلم كيف ينجز هذا الدور.

*** البكاء على الأطلال:**

المتأمل لواقعنا المعاصر يرى أننا مغرمون بالبكاء على الأطلال، وعادة البكاء على الأطلال يفعلها من يقيمون حياتهم على العواطف

والمشاعر والانفعالات، إنها لون من السلبية والاستسلام النفسى والسلوكى.

وتظهر عادة البكاء على الأطلال فى كثير من أمورنا، من ذلك شيوع التفسير التآمرى للأحداث من حولنا، وإلقاء تبعة ما حَلَّ بنا من كوارث ومحن على الآخر، مع تبرئة ساحتنا من المسئولية.

يضاف إلى ذلك اشتغالنا بعيوب الآخر وأخطائه عن اكتشاف عيوبنا وأخطائنا والبحث عن أسباب الوقوع فيها وطرق التخلص منها.

ماذا تنتظر من عدوك؟ هل سيقدم لك هدية؟ أم أن دروه هو أن يفعل كل ما فى وسعه للقضاء عليك؟! لا غرابة أن يتآمر عدوك، أو أن ينال منك، أو ألا يلتزم العدالة معك. كل هذا طبيعى فى سياق الصراع والعداوة، لكن الشىء غير الطبيعى هو أن نغفل نحن عن دورنا... عدوك أدى دوره، فأين دورك أنت؟! وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ النساء/ ١٠٢.

لابد من التحول عن ساحة الكلام إلى ساحة الفعل، فإن الجدل العقيم مهنة الفارغين، إنه جهد من لا جهد له، وعمل من لا عمل له. ولقد ذم القرآن الكريم الثرثرة الفارغة، والتشدق بالقول، وملء المجالس بالكلام الخالى من الفائدة، قال تعالى فى صفة المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ المؤمنون/ ٣. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ القصص/ ٥٥.

وبيَّن النبى ﷺ أن أبعد الناس منه يوم القيامة هم الثرثارون، كما أن القرآن الكريم ذم الكلام الذى لا يتبعه عمل أو القول المخالف للفعل،

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ الصف/ ٢ .

والمسلمون الأوائل لم ينشروا الإسلام بالخطب، ولا بالرسائل والكتب، وإنما نشروه بحسن أخلاقهم وأفعالهم، وكف الشر عن الناس، والتمسك بمكارم الخلاق والفضائل، أى نشروه بالعمل وليس بالكلام.

ومما يحسن ذكره هنا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك/ ٢ . وهذا تعبير تكرر فى القرآن ثلاث مرات، وهو يبين لنا أن القرآن يعلمنا أن نتغيًا التى هى أحسن فى العمل. والعمل المقصود ليس فى أمور الدين وحدها، فربنا هو الذى أمرنا بأن نمشى فى مناكب الأرض، وأن نعمل فيها؛ وذلك لأن الله أقام هذا الكون على سنن متوازية من الأسباب والمسببات، وكل سبب استوفى مقوماته وشروطه فإنه يصل إلى مسببه.

ولقد رأينا صحابة النبى ﷺ وتابعيهم فقهوا ذلك وعملوا به، فمكَّن الله لهم فى الدين والدنيا. فينبغى أن نستبدل بالكلام: الفعل، وأن نعمل للدين والدنيا معًا، وأن نؤدى دورنا كما يحب ربنا ويرضى.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾

صنع الحضارة تكليف إسلامى

آيات القرآن الكريم حددت مهمة الإنسان فى هذا الكون، وفَصَّلت الآيات فى ذلك تفصيلًا يوضح للإنسان دوره الذى كلَّفه الله به، فعلى سبيل الإجمال والعموم قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الذاريات/ ٥٦ . وفى هذا تحديد لعلاقة الإنسان بربه الذى خلقه فسوَّاه.

أما عن علاقة الإنسان بالأرض التى يحيا عليها، فقد كشفت الآيات عن مهمة الإنسان فيها، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود/ ٦١ . وإعمار الأرض على هذا النحو يسير فى اتجاهين:

* اتجاه أخلاقى إيمانى، كى يكون للإنسان المقدمة فى هذه الحضارة، لا أن تتقدم الأشياء على الإنسان الذى كرمه الله تعالى وخلقه فى أحسن تقويم. وأن لا يكون هناك إفساد وتخريب، بل تكون منجزات الحضارة لخير البشرية، فلا تهتز العدالة أمام القوة والطغيان.

* والجانب الثانى من الحضارة هو الجانب المادى، بأن يكون للإنسان السيطرة على قوى الطبيعة ومواردها التى سخرها الله للإنسان، ولذلك سلَّح الله الإنسان بالعلم كى يستطيع أن يقوم بمهمة إعمار الأرض.

*** العلم أساس الحضارة:**

لما أراد الله أن يرفع الإنسان لمنزلة كريمة فى بدء الخلق، لم يكن ذلك بمال ولا بسلطان ولا بشىء من متاع الدنيا، وإنما كان ذلك بالعلم؛ فقد علمه الله الأسماء ثم أمره أن يعلِّم الملائكة هذه الأسماء ليعترفوا بمنزلته، يظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ البقرة/ ٣١-٣٢ .

وأخبر القرآن الكريم أن أهل العلم لهم الدرجات العالية والمنازل الكريمة عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ المجادلة/ ١١ .

ولما أمر الله سيدنا رسول الله ﷺ بسؤال الله تعالى الزيادة، لم يأمره بالدعاء وسؤال الزيادة فى مال أو سلطان أو متاع دنيا، وإنما أمره بسؤال ربه الزيادة فى العلم، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ طه/ ١١٤ .

ولما أراد سليمان - عليه السلام - إحضار عرش بلقيس بصورة معجزة ليظهر عظمة ما وهب الله له من الملك، وما سخر له من الجنود وليتخذ ذلك حجة لنبوته عند بلقيس وقومها كى تؤمن، كانت المفاجأة أن تفوق من عنده علم الكتاب على عفريت الجن فى سرعة الإحضار، قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ النمل: ٣٨/ ٤٠ .

أيضًا مما كرم الله به أهل العلم أنه جعلهم أحق الناس بالخشية من الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فاطر/ ٢٨ .

وكانت أول آية صافحت قلب رسول الله ﷺ هى قول الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ العلق/ ١ .

ثم هذه الدعوة القرآنية إلى البحث والاكتشاف والاختراع، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يونس/ ١٠١ .

كل هذا يؤكد حقيقة قرآنية مهمة، هى أن العلم هو سر الحضارة والتقدم، وهكذا قضت سنة الله فى كونه أن طريق الرفعة والعزة هو العلم.

ويُثاب الإنسان على كل علم نافع للناس؛ سواءً كان طبًّا أو فلكًا أو هندسةً . . . إلخ، ما دام فى نيته وجه الله وإفادة المسلمين، فلقد أمرنا الله بالبحث والتأمل فى كون الله تعالى، قال تعالى:

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يونس/ ١٠١ .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ آل عمران/ ١٩٠ .

إن السعى والاجتهاد فى تحصيل العلم مهمة سامية تجعلنا فى المقدمة بين الناس فى الدنيا وعند الله يوم القيامة، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة.

*** العمل قيمة حضارية:**

وكما حثَّنا الله – سبحانه وتعالى – على العلم وزوَّدنا به، فقد حثَّنا الله – عز وجل – على العمل كى تتحقق عمارة الأرض، وأن نعمل إلى آخر نفس من أنفاس الحياة، حتى إن النبى ﷺ قال: «إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن يغرسها فليفعل» .

وجعل الإسلام العمل النافع من الصالحات التى يثاب عليها فاعلها عند الله تعالى، يشهد لذلك موقف النبى ﷺ من الصحابة حين رأوا شابًا جَلْدًا قويًّا يخرج مبكرًا مع صلاة الفجر إلى عمله ليحتطب ويعود مع صلاة العشاء، وأعجب الصحابة بنشاطه وجَلَدِه، لكنهم قالوا: لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله لكان خيرًا له! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «لو كان يسعى على نفسه أو على أهله . . . فهو فى سبيل الله».

لقد ارتقى الإسلام بقيمة العمل فتجاوز بها حدود النفعية إلى الدلالات الآتية:

* فقد جعل القرآن العمل رسالة الإنسان فى الأرض، فعمارة الأرض

من أهم المهام التى أرشد إليها القرآن، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود/ ٦١ .

* وارتقى القرآن بقيمة العمل، حيث جعله يقوم على العلم، كى يتخلص من العشوائية أو الإضرار والإفساد، فالعمل الصالح فى القرآن هو الذى يرضاه ربنا ويكون على هدى وبصيرة وعلم، وجاءت مئات الآيات تأمر بالعمل الصالح.

* وأوصى النبى ﷺ بالرقى بنوعية العمل وجودته، فمعايير الجودة من هدى رسول الله ﷺ ، قال ﷺ : «إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملًا أن يتقنه».

* والعمل فى هديه ﷺ يتجاوز حدود النفعية المادية إلى منزلة العبادة، قال ﷺ : «من أمسى كالاً (أى مُتعبًا) من عمل يده أمسى مغفورًا له».

* والعمل فى الفكر الإسلامى نعمة ينبغى المحافظة عليها وشكر الله تعالى عليها، قال تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يس/ ٣٥ .

* ومن هديه ﷺ الحفاوة بالعمال وتشجيعهم وتكريمهم، فقد رفع النبى ﷺ يد سعد بن معاذ لما التقى به وكانت بيده خشونة من فلاحة الأرض، وقال: «هذه يد يحبها الله ورسوله». وفى هذا تكريم للأيدى المنتجة النافعة.

* وأوصى النبى ﷺ برعاية حقوق العامل، من ذلك قوله ﷺ : «أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه».

* وجعل النبى ﷺ خير الزاد وأفضل الطعام ما كان من كد الإنسان وعمله، وأوصى المسلم أن يأكل من عمل يده، وضرب لنا مثلًا بأن

الأنبياء يأكلون من عمل أيديهم، والأمة التى تأكل من عمل يدها تملك كرامتها وقرارها ولا تكون تابعة لأحد. إنها الحرية التى يرشدنا إليها رسول الله ﷺ .

وكل هذه الدلالات العظيمة لقيمة العمل فى رحاب هدى النبى ﷺ تنادى الأمة أن تكون على مستوى عظمة هذا النبى بتحقيق هذه القيم الحضارية التى دعا إليها، وهذا من أفضل السبل فى الاحتفال بمولده ﷺ ، فهو ﷺ الأسوة التى ارتضاها الله للأمة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأحزاب/ ٢١ .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

معركة العقل مع التقاليد

*** التغنى بأمجاد الماضى:**

التغنى بأمجاد الماضى وعظمة الحضارة الإسلامية وفضلها على العالم لا يبرئ ساحتنا من المأزق الخطير الذى تمر به الأمة، ولا يعفينا من هول الكارثة التى حلَّت علينا بما كسبت أيدينا، بسبب تراجعنا وجمودنا ووقوفنا عند الماضى لا نرى سواه، فلا كان منَّا الوعى بإشكاليات الحاضر التى نعيشها ألمًا ومعاناةً، ولا لدينا رؤية مستقبلية لموقعنا بين الأمم والحضارات، والمؤلم أن السقوط يتوالى، وقبل أن نفيق من نكبة تفاجئنا نكبات، ومازالت أسباب المحنة تسيطر على الأمة.

فتغييب العقل وتحجيم الفكر والفرار من الواقع بالانغلاق والجمود أدى إلى فساد التفكير ووقوع العقل العربى والإسلامى فى سقطات خطيرة، من أهمها الفشل فى التعامل مع نواميس الكون وقوانينه، والعجز عن ملاحقة القفزات العلمية التى حققها الغرب، فاتسعت الفجوة، وانتقل زمام القدرة والتأثير إلى أيدى الغرب.

ومن فساد التفكير اعتقاد كثير من المسلمين أنهم يستطيعون الانتصار بغير جهد ما داموا يعلنون شعار الإيمان، ومنهم من ينتظر فى شوق منقذ الأمة أو صاحب الزمان أو العصا السحرية التى تخلصنا مما دهمنا من خزى وهوان.

واهتزت قيم العمل والإنتاج وصارت بضاعتنا الكلام، ثم فساد ذات البين الذى نتج عنه التمزق والتشتت فكانت الفتن الطائفية والمذهبية والعرقية، وأخطرها الآن ما بين الشيعة والسنة، وتنفخ أمريكا واليهود فى نار الخلاف وتحرض من يمسكون بكثير من الخيوط التى تحرك

العرب والمسلمين من خارج ديارهم وهم يظنون أنهم أصحاب الرأى والقرار فى أمورهم.

نعم اكتفينا بالتغنى بالأمجاد الماضية وكيل الشتائم والسباب لكل من خالفنا أو أراد بنا سوءًا، وكأننا ظاهرة صوتية لا تحسن سوى الكلام، وفسرنا نصوص ديننا تفسيرًا سلبيًا يتفق مع جمودنا وكسلنا وأهوائنا المريضة، تفسيرًا بمنهج العاهات المزمنة، وتقديسنا لتراث أجدادنا جعلنا لا نميز ولا نمحص ولا ننقد ولا نضيف لما فعله الأجداد، فقط علينا أن نتلقى فى تقديسٍ واستسلام! وإنى لأتساءل: هل يرضى أجدادنا وآباؤنا تعطيل عقولنا وعدم استكمال رحلة المعرفة والعلم؟!

إن أجدادنا لن يكونوا سعداء بجمودنا وتغييب عقولنا حتى أصبحنا فى موقع التبعية للآخر وذهبت المقدمة إلى من يستحقها ممن أعملوا عقولهم وواجهوا التحديات التى أمامهم.

ليس العيب فى تراثنا، وإنما العيب فى عقول تبلدت ولم ترقَ لمستوى التوجيه القرآنى العظيم: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾ الزمر/١٨ .

العيب فى أفراد منا يتعاملون مع البشر بقوالب جامدة ثابتة من الفهم، فمن وافقهم كان ملاكًا رحيمًا، ومن خالفهم كان شيطانًا رجيمًا! وقد ضرب النبى ﷺ مثلًا قاسيًا لمن يتبع الشر ويترك الخير، فقال ﷺ : «مثل الذى يسمع الحكمة ويتبع شر ما يسمع، كمثل رجل أتى راعيًا فقال له: أجزرنى شاةً من غنمك، فقال: اذهب فخذ بأذن خيرها شاةً. فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم». لقد ترك هذا الرجل جميع الغنم، ترك ما يصلح للذبح والأكل، وأخذ ما لا يصلح، وهذا لونٌ من الضلال فى الاختيار.

والقرآن الكريم علَّم المؤمن أن يتغيَّا التى هى أحسن، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾الإسراء/ ٩ .

كما عاب القرآن على من اتبعوا آباءهم على غير علم وعلى غير هدى. رحم الله آباءنا، أدوا دورهم، لكننا تخلفنا عن مستوى عظمتهم ولم نواصل رحلة المعرفة، ولم نحافظ على المقدمة بين الأمم.

ماذا سنقول للأجيال القادمة عنا حين ترانا قد تقوقعنا وتخلفنا وغُيبت عقولنا عن آمال حاضرنا واكتفينا بالتغنى بأمجاد الماضى؟!

وعبور هذه المحن يتطلب تحرك المخلصين من أهل العلم والدعوة والفكر والثقافة والمال إلى الجهاد المدنى ليتحولوا إلى فدائيين لا ينتظرون أجرًا ولا منصبًا ولا شهرة، وإنما ابتغاء مرضاة الله يحشدون الطاقات للإصلاح بفقه الأولويات والتركيز على الحقائق الكبرى التى تجمع الأمة.

وعناصر النهضة قائمة بيننا. فكفانا غفلة، وكفانا فرقة، ولنبدأ... وإلا فالطوفان.

*** جريمة الركود العقلى:**

التقاليد الراكدة فى حياة الإنسان قيد يجره إلى الوراء قرونًا عديدة، ويحرم الإنسان من الوثبات الحضارية التى تجعله فى درجة أعلى ومنزلة أفضل، ومن أسوأ التقاليد الراكدة تلك التقاليد الخاصة بمجال الفكر والعقل؛ فالركود العقلى وراء كل ركود فى حياة الإنسان: ومنه الركود العلمى، الركود الاقتصادى... إلخ.

والمتأمل فى الخطاب الإلهى للإنسان يرى أن الله تبارك وتعالى هدانا وأرشدنا إلى التحرر من سلطان التقليد الأعمى للأسلاف أو للآخر، وأراد ربك أن يكون الاختيار حرًّا بلا قيد، كذلك أراد ربك أن لا يعطل الإنسانُ نعمةً غالية منحها الله له، بها يميز ويدرك ويكتشف الأسرار، إنها العقل، تظهر هذه المعانى فى قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ البقرة/ ١٧٠ .

والتقاليد شىء والشرع شىء آخر، فالشرع ما كان من الله تعالى، والتقاليد شىء آخر يعود لعادات الإنسان فى مجتمع ما وفى زمان محدد.

لقد وصل الله تعالى الإنسان المسلم بالكون، وأمره أن يشاهد وأن يجرب وأن يتدبر ويتفكر ويتأمل ليقف على أسرار سنن الله الجارية، وعشرات الآيات تحث المسلم على ذلك، من هذه الآيات:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ البقرة/ ١٦٤ .

﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ يونس/ ١٠١ .

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ الحج/ ٤٦ .

فتعطيل العقل عن التفكير وقراءة الكون واكتشاف أسرار الخالق فيه جريمة فى نظر الإسلام.

ولقد نَوَّه القرآن بفضل العلم والعلماء الذين يعرفون عظمة الخالق من عظمة خَلْقِهِ، والذين يمعنون النظر فى كون الله وما فيه من نبات وحيوان وجماد، قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ الروم/ ٢٢ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ

ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ فاطر: ٢٧- ٢٨ .

وفى مقابل مدح الله للمؤمنين الذين يعتبرون بآيات الله الدالة على عظمته فقد ذم الله الغافلين الذين لا يعتبرون بآيات الله الدالة على عظمته وقدرته، قال الله تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ يوسف/ ١٠٥ .

ولقد منح الله الإنسان أهم الأدوات الذاتية للبحث العلمى فأنعم علينا بالعقل والسمع والبصر، وجعلها أمانة يُسأل عنها الإنسان أمام الله - عز وجل - هل عطلها؟ هل أساء استخدامها أم أحسن؟ قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ الإسراء/٣٦ .

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الملك/ ٢٣ .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ الأنعام/ ٤٦ .

وإساءة استخدام النعم ظلم فادح من الإنسان لنفسه، حيث خلق الله لنا: السمع، البصر، الفؤاد، العقل، البيان. . . وأنعم بها علينا لتكون أدوات للتعرف على عظمة المخلوقات التى خلقها الله تعالى، فيكون ذلك دليلًا على عظمة الخالق، قال تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ﴾ العنكبوت/ ٢٠ .

وفى التعرف على مخلوقات الله فى الكون طريق لمعرفة سبل الانتفاع بها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ لقمان/ ٢٠ .

وآفاق التسخير واسعة. تأمل كيف انتفع الإنسان بالحديد مثلًا لما علم صفاته وخواصه، واكتشف أنواعه وما فيها من مغناطيسية مثلًا. واكتشاف ما فى طبقات الهواء من خواص مكّن الإنسان من الانتفاع بها، واكتشاف ما أودع الله للإنسان من ثروات فى باطن الأرض ومعرفة سبل الانتفاع بهذه الثروات عمل إيمانى، فسبحان من خلق الأرض ودعانا للتأمل فى ذواتنا، قال تعالى:

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ الذاريات/ ٢١ .

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ فصلت/ ٥٣ .

ولقد لفت الله انتباهنا إلى أن ما بالكون من مخلوقات إن هم إلا أمم أمثالنا؛ لندرسهم ونتعرف على سبل حياتهم كى ننتفع بهم، وكى نزداد تسبيحًا لربنا الأعلى الذى خلق فسوى وقدر فهدى .

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الأنعام/ ٣٨ .

*** هروب إلى الغيب:**

فى أزمة الركود العقلى الذى تعيشه الأمة ، نرى انصراف العقل، عن هموم الواقع وآلامه - والتى نحن مكلفون بها - إلى التفكير فى قضايا الغيب التى أمرنا بالإيمان بها لكننا لم نُكلف بها .

من الملاحظات التى أثارت انتباهى خلال مرورى بالمكتبات الدينية

هذا الإقبال المتزايد من الشباب على الكتب التى تتناول موضوعات: الجن والشياطين، والسحر، وتفسير الأحلام، وعذاب القبر، والمسيخ الدجال .. ونحو ذلك من موضوعات الغيب .

وهذا الإقبال المتزايد على كتب الغيب ارتبط فى ذهنى بما عليه العامة وبعض المثقفين من خيالات وما يجرى على ألسنتهم من أمنيات، مثل: يا ريت ألاقى ألف جنيه، وآخر يتمنى أن يحصل من ورقة اليانصيب على مائة ألف جنيه، وثالث يتمنى أن يحصل على جائزة سلعة من السلع ويا ريت تكون سيارة .. وهكذا .

وكل واحد من هؤلاء يتمنى العصا السحرية يحقق بها آماله وأحلامه ويقضى بها على مشاكله وهمومه، وانصرفوا عن مواجهة الواقع ومشاكله، ورضوا بأن يكونوا غارقين فى أحلام اليقظة، وهذا سلوك مدمر يحتاج إلى وقفة وعلاج .

فانصراف الشباب إلى الأحلام والأوهام تاركين الواقع بهمومه ومشاكله، منتظرين أن تمطر السماء حلولًا لهذه المشاكل وتحقيقًا لهذه الأمانى فى دنيا أقامها الله تعالى على الأسباب، إنذار خطر لمستقبل غير واعد .

وسنن الله تعالى الكونية لا تتخلف أبدًا، اللهم إلا معجزة لنبى أو كرامة لولى ، وقد بينت آيات القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية المطهرة أن الأمور فى دنيا الناس لها مقدمات تؤدى إلى نتائج، وحسبنا أن نتأمل هذه الآيات من القرآن الكريم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد/ ١١ .

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ الحج/ ٤٠ .

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ العنكبوت/ ٦٩ .

ولنتأمل كذلك القدوة الطيبة والأسوة الحسنة فى حياة سيدنا رسول الله ﷺ . فقد علمنا أن نأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى . وتأمل حاله ﷺ فى حفر الخندق، وحاله فى الهجرة؛ من الإعداد والترتيب والأخذ بأسباب النجاح، وحاله فى مكة من سعيه الدؤوب من أجل القيام بأعباء الأمانة التى كلفه الله بها، أمانة الدعوة وتبليغ الرسالة .

إن اعتبار الأسباب والاهتمام بها أمر قرآنى لأن الله أمر به، لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ التوبة/ ١٠٥ . وقوله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الجمعة/ ١٠ . وقوله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ الملك/ ١٥ . ونحو ذلك من الآيات .

وكما قال بعض السلف: فعل السبب طاعة، وترك السبب معصية، والاعتماد على السبب شرك بالله تعالى .

ومن الحقائق القرآنية التى تلفت الانتباه قول الله - عز وجل - :

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ النساء/ ١٢٣ . حيث ترتب الآية النتائج على الأسباب المؤدية إليها، وتوضح أن إنجاز الطموحات ليس بالأحلام فلا يستوى عامل وخامل، ولا يستوى عالم وجاهل، ولا يستوى كسول ومجتهد .

فالإنسان - إذن - هو الذى يختار مكانه من خلال عمله وعطائه وتضحيته، والمقدمة لن تكون أبدًا إلاَّ لمن سلك أسبابها، أما الأدعياء وأصحاب الأمانى فقد ردَّهم القرآن إلى الصواب فى هذه الآية، حيث جاءت الآية فى سياق تباهى أهل كل دين وعقيدة بأفضليتهم على من سواهم فنزل القرآن حاسمًا فى تحديد معيار الأفضلية، إنه العمل .

*** عشوائية فى التفكير:**

فى إطار العلم والحضارة يكون التنبؤ بالمستقبل عن طريق العلم

ومحاولة اكتشاف سنن الله الجارية فى الكون، مثال ذلك مشروع الجينوم البشرى التى يهدف إلى فك الشفرة الوراثية للإنسان، والتى من خلالها يمكن التنبؤ بمستقبل أعضاء جسد الإنسان وسلوكها بين الصحة والمرض وسبحان الله القائل:

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾الذاريات/ ٢١ .

هذا فى مقابل عشوائية الفكر والركود العقلى فى التنبؤ بالمستقبل على طريق التكهنات وقراءة الكف وحظك اليوم والدجل والشعوذة، هل يمكن أن يقبل مؤمن أو عاقل هذه السخافات .

فالتفكير والتدبر والبحث والدراسة للآيات الكونية فريضة إسلامية ينبغى ألا يتخلف المسلمون عنها .

ومن اللافت للانتباه أيضًا أن كثيرًا من الظواهر الكونية جاءت عَلَمًا على أسماء سورة قرآنية، منها ما كان فى مجال الفلك (مثل: النجم، الشمس، الرعد، الليل، الضحى)، ومنها ما كان فى مجال المخلوقات التى تشاركنا الحياة على سطح الأرض (مثل: الأنعام، النمل، العنكبوت) وتكرر ذكر الظواهر الكونية فى آيات كثيرة لتفتح للعقل آفاقًا ممتدة للتفكير والاكتشاف والاختراع .

وتدعيمًا لعقلية المؤمن فى الانطلاق المتأمل المتدبر حارب الإسلام العشوائية فى التفكير والسلوك، فنهى عن التطيّر وكل ما كان فى حكم التطيّر (من: قراءة الكف، والفنجان، وحظك اليوم، وغيره) لأن أمور الحياة وسنن الله الكونية لا تقوم على ضربة حظ أو خيال دجال وإنما بتدبير محكم من الله تعالى:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾﴾ القمر/ ٤٩ .

كما تشير الآيات إلى أن النظام الدقيق الذى لا يعرف الخلل هو الذى يحكم ظواهر الكون؛ قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ

وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يس/ ٤٠ .

لعل فى كل هذه المعانى دافعًا قويًّا إلى أن ينشط العقل ويقوم بدوره فلا يقتصر نظرنا لآيات القرآن التى تتناول الظواهر الكونية عند حدود الإيمان فقط، بل ينبغى أن يمتد فهمنا إلى معناها الواسع الممتد الذى يدعونا إلى البحث والاكتشاف؛ كى ننتفع بأسرارها .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

عقبات فى طريق النهضة

هنالك عقبات وموانع تقف حاجزًا بيننا وبين اقتحام المستقبل، والنهوض من الكبوة التى طال أمدها، ولا سبيل إلى نهضة أمتنا واتخاذها الموقع المناسب على خارطة العالم المعاصر إلا بتجاوز هذه العقبات والمهلكات، وهى:

١- تغييب العقل وتحجيم الفكر: وذلك بترديد النصوص الدينية ترديدًا أجوف دون ربطها بالواقع ودون اقتحام هذا الواقع والتعامل مع مشكلاته .

٢- غياب الحرية: والعلاقة بين الحرية والتقدم الحضارى علاقة وثيقة؛ فإن الإنسان المقهور الذى سُلبت حريته وانتقصت إرادته وكرامته لا يستطيع أن يبنى ولا أن يصنع حضارة، كيف ينهض بالأعباء من يرسف فى الأغلال؟!

إن الحرية هى الهواء الذى يتنفسه الإنسان، وهى مفتاح السر الذى يفجر طاقاته ويدفعه إلى الحركة والسعى واختراق آفاق جديدة فى الإبداع والإنجاز، وغياب الحرية يحرم الإنسان من الشعور بالقوة والقدرة على الإنجاز، فيعجز ويركن إلى الخمول والسلبية .

٣- غياب العدالة: فالظلم مؤذن بانهيار الحضارات وفناء المجتمعات، حيث لا أمان للأفراد، فكيف يعملون، وكيف يبدعون؟! وقد أكد القرآن هذه الحقيقة فى قول الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الأنعام/ ٨٢ .

٤- إسقاط قيمة العمل والإنتاج: وقد غاب عنَّا أو تجاهلنا أن العمل عبادة فرضها الله على عباده وتكرر الأمر بها فى كتاب الله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ .

لكننا جهلنا - أو تجاهلنا - قيمة العمل، وغرقنا فى الخمول والكسل، مكتفين بالكلام الذى لا ينتج شيئًا، وجهلنا - أو تجاهلنا - أن الله يرفع بالعمل أقوامًا، ويخفض بالبطالة والعجز آخرين، وتلك سنة من سنن الله فى خلقه .

٥- الفردية: فى عصر التكتلات السياسية والاقتصادية لم يعد للفردية وجود، وإنما الغلبة والظهور والتمكن لمن يعملون بروح الفريق، حيث تتكامل الجهود والأدوار، ويستمر جهد المجموع . والله - سبحانه وتعالى - قد علَّمنا أسلوب العمل الجماعى، فنحن نصلِّى الصلوات الخمس والجمعة والعيدين فى جماعة، ونصوم رمضان معًا، والخطاب القرآنى جاء بصيغة الجمع، والنبى ﷺ زكى روح الجماعة وأخبرنا أن «يد الله مع الجماعة» .

أما التنازع والتفرق والتشتت فهو مهلكة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الأنفال/٤٦، وضرب النبى ﷺ لنا مثلًا للمفارق للجماعة ومدى ضعفه وتعرضه للهلاك بقوله ﷺ : «ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» .

٦- عدم إدراك فقه الواقع وترتيب الأولويات: إن فقدان الوعى بترتيب الأولويات يهدر طاقات الأمة ويضعها فى غير موضعها، وبالتالى تضعف النتائج ولا تتكامل الجهود، ونفقد تأثير اللحظة . فقراءة الواقع وما يناسبه من أعمال أساس من أسس النجاح فى اقتحام المستقبل .

٧- تمكن الجهل وافتقاد الروح العلمية: لا تقوم حضارة إلا على علم، أما الجهل فيأتى على كل شىء، والإسلام دعوة للعمل الذى لا يقف عند حد، والقرآن يبين أن أسباب رفعة الإنسان إنما تكون بالعلم،

والآيات فى ذلك كثيرة ومشهورة .

وما لم يتخلَّ المسلمون عن هذه الموبقات السبع فلا مستقبل لهم مهما تغنوا بأمجاد الماضى وكانت منهم الأحلام الوردية فى مستقبل لا حظ لهم فيه؛ لأنهم لم يؤهلوا أنفسهم له .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

فكر الأزمة

ابتُلِيَتْ حياتنا بصنف من الناس ملأه التشاؤم، الحياة المعاصرة فى نظره إثم كلها، والمجتمع جاهلى، والناس فاسقون، وأكثر الألفاظ على لسانه إذا تحدث حرام فى حرام .

هذا النوع من الناس سريع فى اتهام غيره، وفى إساءة الظن بالآخرين، لا يقبل رأى مخالفيه . وهذا فكر يميل إلى الغلوّ، ولهذا الفكر أسباب اجتماعية وسياسية . . . إلخ .

ومن أخطر ما يقع فيه هذا الفكر معاملة الناس جميعًا بميزان واحد دون تمييز بين شاب وشيخ، ومريض وصحيح، وظروف مختلفة يعيشها الناس، وغفلوا - أو تغافلوا - عن هذا اليسر وهذه السماحة التى تميز بها الإسلام تقديرًا للظروف المتفاوتة للناس، فمن كان مسافرًا فله أن يفطر فى الصوم، ويقصر فى الصلاة، والمرأة الحامل والمرضع لها رخص فى دين الله - عز وجل - وكان النبى ﷺ يُسأل السؤال الواحد من أفراد مختلفين، فيجيب كل واحد منهم بإجابة بحسب ظروفه، إنها مرونة تستجيب لأحوال الناس وظروفهم .

فيُسأل ﷺ عن أفضل العمل، فيجيب الشاب القوى بأنه «الجهاد فى سبيل الله»، ويجيب الشيخ الفانى بأنه «ذكر الله - عز وجل -»، ويجيب من له أبوان مريضان لا يجدان من يرعاهما بقوله ﷺ : «بر الوالدين» . . . وهكذا يعلمنا النبى ﷺ الوعى الفهم وحسن التقدير .

ومن يُسْرِه ﷺ حين أقبل الرجل وعرض على النبى ﷺ أن يلتزم بالفرائض وحدها لا يزيد عليها ولا ينقص، فقال له النبى ﷺ : «أفلح إن صدق» .

وكان اليسر والتيسير هو اختيار رسول الله ﷺ ، قالت السيدة عائشة - رضى الله عنها - فيما أخرجه البخارى: « ما خُيِّر النبى ﷺ بين أمرين

إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه» .
وما من شك فى أن التشديد على الناس وعدم التيسير يجعل العبادة صعبة على الناس، وقد يعجزون عن الاستمرار على هذا المستوى المتشدد، وربما ملَّ بعضهم هذا التشديد، فى مقابل أن التيسير يحبِّب العبادة إلى الناس ويجعلها سهلة فى أدائها فيستمرون ويستطيعون المواصلة دون ملل، وصدق الله العظيم: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ البقرة/ ١٨٥ .

ومن ملامح الغلو فى فكر الأزمة: الغلظة والخشونة والفظاظة فى التعامل، فترى هذا النوع من الناس عابس الوجه متجهمًا ينهال على الناس بما جاء فى القرآن من وعيد، وكأنه لم يتعلم من الدين إلا جانب الترهيب والتخويف، مع أن الذين يجلسون أمامه هم الذين يصلون ويصومون ويزكون ويفعلون الخيرات ويتركون المنكرات!

وحسبنا هدمًا لفكرة الغلظة والخشونة والوجه العابس فى الدعوة أن نتأمل خطاب الله لنبيه ﷺ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ آل عمران/ ١٥٩ . فالناس لا تحب الفظ ولا الغليظ ولا القاسى فى كلامه ولا الشديد المعنف، حتى ولو كان هذا الإنسان - وحاشاه أن يكون هكذا - هو رسول الله المؤيد بالوحى، فكيف بغيره من الناس؟!

ومن ملامح فكر الأزمة: السقوط فى هاوية التفسيق وربما التكفير، يرى البعض نفسه هو المسلم وهو المؤمن وهو الصالح، ويرى غيره

دونه، أو فاسقًا، بل ربما وقع فى هاوية تكفيره . وقد نعى الإسلام على هذه النظرة الخاطئة، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ النجم/ ٣٢ .

وقد سألت السيدة عائشة - رضى الله عنها - رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ المؤمنون/ ٦٠ . فقالت: يا رسول الله، هل هو الرجل يسرق ويزنى ويفعل الموبقات، ويخاف إذا رجع إلى ربه أن يعاقبه عليها؟ فقال النبى ﷺ : «لا يا عائشة، إنما هو الرجل يصوم ويصلى ويفعل الخيرات، ويخاف إذا رجع إلى ربه ألّا يتقبل منه، يا عائشة: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ المؤمنون/ ٦١ » .

وتفسيق المسلم وتكفيره يجعل الإنسان على خطر عظيم، قال النبى ﷺ : «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما» . وفى الحديث الذى أخرجه مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» . وأخرج مسلم أيضًا: «إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس، فهو أهلكهم» . أى هو أشدهم هلاكًا؛ لغروره بنفسه وسوء ظنه واتهامه للناس واستعلائه عليهم .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

فوضى فكرية

*** أين نسبُنا الإسلامى؟!:**

إلى متى نظل فى الفوضى الفكرية الرهيبة التى تظهر فى برامج التليفزيون، ومنها على سبيل المثال: البرنامج الأسبوعى «اسهر معنا»، وتحت عنوان «فى حب مصر»، أعلن ضيوف الحلقة العداء للعروبة والإسلام .

فالعرب ليسوا فاتحين وإنما غزاة، ولا يعقل أن نظل لمدة أربعة عشر قرنًا خاضعين لهذه الثقافة! فالعروبة فى نظرهم وصمة عار ينبغى التخلص منها والعودة إلى أصولنا الفرعونية!!

وطالبوا فى إصرار بتدريس اللغة الهيروغليفية والإبقاء على اللغة الإنجليزية لغة العلم والحضارة، ولا يقتصر الأمر على تدريس اللغة الهيروغليفية، بل طالبوا بتدريس عقيدة إيزيس وأوزوريس للأطفال المصريين، لأن العقيدة الفرعونية أصل لكل الديانات .

وهذا يعنى عودة الشعوبية القديمة مرة أخرى، وتكون مصر فرعونية والعراق آشورية وبابلية، وسوريا فينيقية ..إلخ، وهكذا نتنكر لنسبنا الإسلامى .

ومع هذا العوج الفكرى، نرى الفوضى الأخلاقية والاجتماعية التى يعيش فيها شباب هذا المجتمع، وموت الضمائر وشيوع الفساد وتفشى المتناقضات التى ملأت حياتنا .. وهكذا تصنع الحرب الثقافية بنا .

فلماذا التخلى عن خصوصيتنا؟! ولماذا التنكر لنسبنا الإسلامى؟؟

إنهم يخرفون!:

فى إحدى الحلقات الفضائية قالت واحدة من أهل التهدم إن القرآن كتاب مضى عليه ألف وأربعمائة عام، فكيف تصلح أحكامه للزمن

المعاصر؟! فالقرآن فى نظرهم موقوت بالزمن الذى نزل فيه، أما الآن فإنهم يزعمون أن قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ النساء/ ١١ .

إنما هو خاص بزمن نزول القرآن، حيث لم يكن للمرأة استقلال اقتصادى، أما بعد أن خاضت المرأة معركة الحياة والعمل فلم يعد هذا الحكم ذا موضوع!!

ومن أوهامهم أن تعدد الزوجات حكم قد بطل زمانه، ولم يعد صالحًا للعصر الحاضر، ويرضون أن يكون للرجل خليلة (عشيقة)، ولا يرضونها حليلة (زوجة)، ومقتضى هذا كله أنهم يريدون إبطال شريعة القرآن، ويعطون المخلوق حق الاستدراك على الخالق والتعقيب على حكمه، وهذا تطاول واجتراء، فالقرآن الكريم ليس إنتاجًا بشريًّا، وإنما هو تنزيل من الله العزيز العليم الذى خلق الناس ويعلم ما يصلحهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ الملك/ ١٤ .

لقد اقتضت حكمة الحكيم - سبحانه وتعالى - أن يكون القرآن الكريم كتاب الزمن كله، كتاب الخلود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد تعهد الله بحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ الحجر/ ٩ . ومعنى هذا أن أحكامه وأوامره ونواهيه وكل تشريعاته ليست موقوتة بزمن معين، وإنما هى سارية قائمة إلى يوم القيامة .

وبشأن أوهامهم فى ميراث المرأة، فإنه إذا جُمع ما للمرأة من أنصبة مختلفة فى الميراث من الأقارب يظهر للعاقل أن مجموع أنصبة المرأة يفوق مجموع أنصبة الرجل، وكرمت التشريعات القرآنية المرأة أمًّا، وأختًا، وزوجة، وخالة، وعالمة، ومربية، ومجاهدة، وكذلك علاقة الزواج بشأن المرأة جاءت مواكبة للفطرة التى خلق الله عليها المرأة والرجل .

وأخيرًا فليعلم هؤلاء المخرفون أن المؤمن لا يتعالم على ربه، وأن تشريعات الله فى القرآن ليست موضوعًا للمناقشة، لأن هذا يخرجنا عن دائرة الإيمان؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الأحزاب/٣٦ .

ومدح الله المؤمنين المسارعين إلي الاستجابة لأمر الله بقولهم، كما أخبر الحق - عز وجل - عن شأنهم، فى قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ النور/٥١ .

إن أعداء الإسلام يسرهم شىء كهذا اللغو الفكرى، والمستقبل حافل بالنذر، ما دامت الأمة تتخبط بين التغريب والفرعنة ونتنكر لعروبتنا ونسبنا الإسلامى .

ولا صلاح لهذه الفوضى الفكرية الرهيبة إلا بالعودة إلى القرآن بمفهومه النظرى الرحب، ومفهومه العملى التطبيقى الدقيق، وليس معنى العودة أن نرفع الشعارات ونكتب على الرايات: الله أكبر، والقدس لنا، بل العودة إلى القرآن: أن تملأ قلوبنا بـ «الله أكبر»، وأن نعمل لتمكين أمتنا من أسباب النصر كى نكون مؤهلين لاستعادة القدس .

إن جراحات الأمة لا تداويها الكلمات ولا الشعارات، وإنما يداويها العمل المخلص الذى يراقب لله عز وجل ويسعى لمرضاته .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

كفانا فرقة

من أخطر ما أصيبت به الأمة، وجَرَّ عليها المحن والكوارث، داء الفرقة والتنازع . ومن المؤلم أن العالم كله يعيش عصر التكتلات العسكرية، والاقتصادية، والعرب يزدادون تشتتًا وفرقة .

لقد رأينا الاتحاد الأوروبى ينمو حتى أصبح يضم (٢٣) ثلاثًا وعشرين دولة لها عملة واحدة هى اليورو ومصالح مشتركة وحدود مفتوحة . . . إلخ، على الرغم من تعدد لغات هذه الدول لكنهم أدركوا أنهم لن يستطيعوا أن ينتزعوا لأنفسهم مكانًا لائقًا بهم إلا بالوحدة .

أما نحن العرب فعلى الرغم من توافر أسباب ودواعى الوحدة إلا أننا نزداد فرقة وتشتتًا !! ونذر وحدة اللغة والدين، وهذه الثروات التى حبا الله بها بلادنا . . وكثيرًا من أسباب القوة والوحدة . .

إننا لم ننهض ولو على مستوى التعليم فنبدأ بتوحيد المناهج كى تكون خطوة لتوحيد الفكر . فلا القلوب اجتمعت ولا العقول تقاربت، والنسب المئوية لحجم التجارة الخارجية لا تتجاوز ٢٪ وحتى فى سوق العمالة لم نستطع توظيف الثروة البشرية العربية . . . إننا نهدر كل شىء!

وتتساءل الشعوب: لماذا؟

هل لأن مستوى الأنظمة العربية ليس على مستوى طموحات الأمة العربية؟

هل لأن الأنظمة العربية استبدادية وليس من حق الشعوب محاسبتها؟!

هل لأن الأنظمة العربية أوصياء على الشعوب لصالح الدول الكبرى؟

هل الشعوب هى الداء الكامن وراء تخلفنا وتفرقنا؟

أم أن الخلل فينا جميعًا شعوبًا وأنظمة؟!

مهما يكن من أمر فإن هذا اللغز يبحث عن حل .

وهنالك رؤى للحل، كل رؤية تمثل جانبًا من جوانب هذا الحل الذى يحقق للأمة وحدتها .

ورؤية الدين أساسية فى هذا الجانب لأن الدين له أكبر الأثر فى التغيير، وبخاصة أن شعوبنا محبة لدينها .

والمتأمل لشريعة الإسلام يرى بوضوح أن الله تعالى وَحَّدنا فى العبادة من خلال صلاة الجماعة والجمعة والعيدين والحج ورمضان، وحثنا على التعاون فيما بيننا، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ المائدة/ ٢ .

كما دعانا الإسلام إلى التسامح ولين الجانب، قال الله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ الشعراء/ ٢١٥ . وبهذا يتماسك المجتمع ليكون دعمًا لوحدة الدولة والأمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ الأنبياء/ ٩٢ .

وهذا الهدى الكريم يحتاج إلى إكسابه للناس سلوكًا وفعلًا، وتحويل الكلام إلى فعل يحتاج وقتًا وجهدًا ومنهجًا؛ لأن التغير فى الأمم لا يقع فجأة، فأنت لا تستطيع بالضغط على مفتاح بجهاز الحاسوب (الكمبيوتر) أن تنتج شعبًا حضاريًا وجيشًا قويًا ونظامًا ديمقراطيًا .. ومؤسسات قوية ناجحة!!

ولا يقول بذلك عاقل، فقد جرت سنة الله فى كونه أن يحتاج التغيير إلى وقت وجهد وعلم ومنهج، وعشرات السنين فى عمر الأمم أيام . لذا نحن نحتاج إلى فقه القرآن فى الإصلاح والتربية، وللإعلام دور بارز فى نشر هذه المفاهيم .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

لا تلعنه

* كان على عهد النبى ﷺ رجل يُدعَى عبد الله، وكان يُضحِك رسول الله ﷺ ، وكان النبى ﷺ قد جلده فى الشراب، فأُتِىَ به يومًا فأمر به فجُلِد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبى ﷺ : «لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله» .

* هذا الموقف يبصِّرنا بهدى كريم للنبى ﷺ فى التعامل مع الإدمان، إنه ابتلاء يحتاج إلى علاج حين يصل موقف المدمن للخمر أو لشىء من المخدرات إلى الضعف وانهيار العزيمة؛ وتمكن المخدر من دمه حتى أصبح أقوى من إرادته فى الإقلاع؛ لذلك فإن الانتكاسة أمرٌ وارد لدى المعالجين والمصلحين، بل يَعُدُّه البعض خطوة فى طريق الإصلاح، حيث تربِّى قوةُ الندم فيه قوةَ الإرادة، وترفع من قوة تحمل المدمن كى لا يسقط مرة أخرى .

* الأمر الثانى: أن رسول الله ﷺ يعلِّمنا ألاَّ نيأس من هؤلاء المدمنين الراغبين فى التوبة والعلاج، وأن نصبر أنفسنا معهم؛ لأنهم أصبحوا غير أسوياء فى التفكير، وهم واقعون تحت ضغوط من المخدر فوق طاقتهم قد تغيِّب عقولهم وتضعف إرادتهم فيفعلون أشياء ينكرونها على أنفسهم إذا ما انتبهوا من غفلتهم وارتدَّ إليهم وعيهم وعقلهم .

* ومن هنا فهم- من هذا الجانب - من أهل البلاء، حيث إنهم يريدون أن يتوبوا ولا يستطيعون، إنهم فى حاجة إلى دعم ومعونة من إخوانهم الأصحاء الأسوياء كى تصح لهم توبتهم ويتم لهم الشفاء .

وتتمثل المعونة لهؤلاء فى تنمية قدرتهم وإرادتهم لتتغلب على قوة **المخدر** . وهذا يحتاج إلى خبرة ودراية بمعالجة العقول والقلوب **والسلوكيات**، حتى يكون الأمر على بصيرة ولا يقف عند حدود النصيحة

القولية والتحذيرات واللوم أو التعنيف، بل نساعده ليكتشف نفسه ويكتشف سبب لجوئه إلى المخدر: هل هو هروب من واقع مؤلم؟ أم فشل فى تحقيق طموح أو أمل؟ أم هو الترف والفراغ وصحبة السوء؟ . . . إلخ .

* ثم درس الأمل، فبالإيمان يتجدد الأمل، الأمل العريض فى وجه الله الكريم الحنَّان القادر على منحنا القوة والإرادة والعزيمة كى نتغلب على هذا العدو الطاغى (المخدر) .

* ثم إن الوقوف على نقاط الضعف التى يتأتى منها سقوط الإنسان فى بئر المخدر أمر فى غاية الأهمية كى يتجنب هذه الأمور، ويتعلم كيف يُحصِّن نفسه منها .

* ثم صحبة الخير والصلاح هى البيئة التى يحدث فيها ومن خلالها التغير والتحول من السلوكيات الإدمانية إلى السلوكيات الإيمانية، لأن البيئة تمثل ساحة الفعل والتطبيق . ولذلك كانت نصيحة العالم للمسرف على نفسه الذى قتل تسعًا وتسعين نفسًا ثم أتمَّ المائة بقتل العابد الذى صرح له بأنه لا توبة له، أن يترك صحبة السوء وأرض الفساد التى عُرِفَ فيها بالمعصية والشر، ويتوجه إلى صحبة خير تعينه على تمام توبته وعلى حياته الجديدة فى الخير والصلاح، وتكون صحبة الخير فى البيئة الجديدة تقوية لإرادته وعزيمته فى مواجهة إلف العادة مع المخدر، كما تحميه من لحظات الضعف والسقوط .

* وفى الموقف توجيه من النبى ﷺ للمجتمع بأن لا يقف المجتمع ضد المبتلَى بالإدمان فى حال رغبته فى العلاج، فلا نشغل أنفسنا بعقابه دون أن نشغل أنفسنا بدعمه ومعونته وعلاجه؛ لذلك قال النبى ﷺ للرجل الذى لعن من سقط فى شرب الخمر بعد توبته: «لا تلعنه» .

* ثم يكشف النبى ﷺ عن هذا الخير الكامن بداخل هذا المدمن، وأنه يحب الله ورسوله، وهذه شهادة حق وصدق لرجل يحب الله

ورسوله لكنه ابتُلِيَ بهذا الداء الذى يسقط فيه كثير من الشباب، إمَّا بدافع التجربة مع أصدقاء السوء، أو التسلية معهم، أو البحث عن وهم السعادة والقوة، أو الهروب من ظروف سيئة أحاطت بهم فإذا بهم يعالجون مشكلة بكارثة لا تنتهى بهم - إن لم يتوبوا ويأخذوا فى طريق العلاج ويصبروا عليه - إلا إلى أحد أمرين: الموت، أو السجن .

* نسأل الله السلامة لأبنائنا، وندعو أفراد المجتمع إلى أن يكونوا عونًا لمن يرغب فى التوبة والشفاء، وأن يتأسَّوا برسول الله ﷺ حين قال للرجل الذى نظر للمدمن من جهة المعصية فلعنه، لكن النبى ﷺ يحوِّل نظره إلى الخير الكامن فى هذه الشخصية، وإلى البلاء الذى وقع به فى غفلة منه، حيث قال ﷺ : «لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله» .

لقد تعامل النبى ﷺ معه على أنه مبتلى يحتاج المعونة .

ولنا فى سيدنا رسول الله ﷺ أسوة حسنة وقدوة طيبة . وصدق الله العظيم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ الأنبياء/ ١٠٧ .

لا تمسك بأذن كلب الغنم

اجتهد الشيطان فى الآونة الأخيرة، ومعه أعوانه من الإنس (أعداء الدين)، فى نشر آفة خطيرة بين صفوف بعض أفراد مجتمعنا الإسلامى المعاصر .

هؤلاء الأفراد زين لهم الشيطان أعمالهم وأقوالهم، فاشتغلوا بتتبع العثرات، خاصة عند العلماء، أفرادٌ يصنعون التهم، وهى فى الأعم الأغلب قائمة على الشائعات والتخمينات، أو على أمر الهوى والعاطفة والانتصار لرأى بعينه أو مذهب مُتبع .

أفراد يتعاملون مع البشر بقوالب جامدة ثابتة من الفهم، من وافقهم فيها كان ملاكًا رحيمًا، ومن خالفهم كان شيطانًا رجيمًا .

هؤلاء وأمثالهم حسبنا وإياهم أن نلوذ جميعًا بمنبع الهداية والشفاء: القرآن الكريم، وبهدى رسولنا الأمين سيدنا محمد ﷺ ؛ فهو الأسوة والقدوة التى ارتضاها الله وزكَّاها وأرشد المؤمنين إلى اتباعها .

ولعل من المناسب أن نبدأ بحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - حيث يضرب النبى ﷺ فى هذا الحديث مثلًا قاسيًا لمن يتبع أسوأ ما يسمع، ومن ينشر عن الناس أسوأ ما سمع عنهم، قال النبى ﷺ: «مثلُ الذى يسمع الحكمة ويتبع شرَّ ما يسمع، كمثل رجل أتى راعيًا فقال له: أَجْزِرنى شاة من غنمك، فقال: اذهب فخذ بأُذُن خيرِها شاةً . فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم! » .

لقد ترك هذا الرجل سائر الغنم، ترك ما يصلح للذبح والأكل، وأخذ ما لا يصلح، وهذا لونٌ من الضلال فى الاختيار .

وفى هذا الحديث تربية كريمة لسلوك المؤمن تجاه ما يسمع، فلا ينبغى أن يقف المؤمن عند الهفوات، ولا ينبغى له أن يتتبع العثرات

والسقطات، وإنما سبيل المؤمن أن يصطفى أحسن ما قيل، وفى ذلك امتثال لقول الله تعالى حين مدح عباده الفائزين بهداه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾ الزمر/١٨ .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى تفسير هذه الآية قال: هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ، فيحدث بأحسن ما سمع ويكفُّ عما سواه .

وذلك لأن المؤمن حريصٌ على فعل ما هو أكثر ثوابًا عند الله تعالى، ولا ينشر إلا الخير، ولا يلتمس لأحد عيبًا .

روى الطبرانى فى الصغير والأوسط بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «إن أحبّكم إلىَّ أحاسِنُكم أخلاقًا، المُوَطَّأون أكنافًا، الذين يَأْلفون ويُؤْلفون، وإن أبغضكم إلى المشَّاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الملتمسون للبُرآءِ العيبَ» .

وكم كان النبى ﷺ يجأر إلى الله تعالى مستعيذًا من الخلاف والشقاق والنزاع؛ من ذلك ما رواه أبو داود والنسائى بسنديهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إنى أعوذ بك من الشِقاق والنفاق وسوء الأخلاق» .

ولا يغيب عن بالنا أن غالب المسلمين يعلم حدود الحلال والحرام، وليست القضية إثبات خطأ المخطئ وتجريمه، إنما القضية فى حمل النفس على الالتزام بالحلال وهجر الحرام، المعونة التى تقدمها لأخيك فى التغلب على نفسه وهواها، والقضية أن الدعوة إلى الله تعالى إعانة وليسْت إدانة، كما أنه ليس من المناسب للمبتدئ أو العامة الاشتغال بالنقد، خاصة لأهل العلم، فأدوات النقد ومعطياته عند المبتدئ قليلة وقاصرة، وتصل به إلى نتائج مضللة غير صحيحة، المسألة هنا مسألة

وعى وفهم للنصوص، وليست مسألة امتلاك حفظ النصوص أو معرفتها فحسب .

ثم إن المبتدئ متبع مقلِّد وناقل، له أن يتبع ما اطمأن إليه قلبه وصحَّ فى فهمه من آراء أهل العلم، لكن ليس له تسفيه آراء الآخرين، وليس له أيضًا فرض فهمه على الآخرين .

وحسبنا هنا أن نتأمل مواقف أئمة الدين فى عصور الإسلام الأولى، كيف أنهم لم يلزموا الناس الأخذ بمذهبهم، وكانوا لا يرون غضاضة فى الخلاف، وكان الواحد منهم إذا رأى الصواب أو الأفضل فى غير رأيه لا يأنف أن يرجع إليه؛ فالإمام أبو حنيفة مثلًا كان يفضِّل الصدقة على حج التطوع، فلما حج ورأى مشقة الحج عاد عن قوله هذا إلى تفضيل الحج .

وجدير بالذكر فى هذا المقام موقف الإمام مالك - رضى الله عنه - الذى لم يَرْضَ للخليفة هارون الرشيد أن يجبر جميع المسلمين على العمل بكتابه «الموطَّأ»، رغم شدة تحرى الإمام مالك فى روايته له وموافقة علماء الدين عليه، وعلَّل الإمام مالك رفضه هذا بقوله: إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى البلاد، وقد يكون عند بعضهم من الأحاديث ما لم يبلغنى، ولو بلغنى لغيَّرت شيئًا مما دوَّنته .

وكان بعضهم يعمل باجتهاد غيرهم؛ ترخُّصًا أو موافقة لجماعة المسلمين، من هذا ما روى عن الإمام أحمد - رحمه الله - فقد كان يرى الجماعة أن الحجامة أو الفصد ينقض الوضوء، فسئل عن الإمام احتجم وقام إلى الصلاة ولم يتوضأ، هل يصلى الإمام أحمد خلفه؟ فقال: كيف لا أصلى خلف مالك وسعيد بن المسيب؟!

وروى أن الشافعى ترك القُنوت فى الصبح لمَّا صلى مع جماعة الحنفية فى مسجد إمامهم ببغداد .

فبهذه الروح الطيبة وبهذا التسامح حمل أئمة السلف راية الدين، دون انتصار لهوى أو تعصب لرأى؛ لهذا حفظهم الله تعالى وصانهم من التحاسد والتخاصم، وانتفعت الأمة بعلمهم وبأعمالهم، وكان اختلاف الرأى عندهم عامل صحة وبناء وليس عامل هدم؛ لأن كلاً منهم كان ينشد الصواب والأفضل حتى لو ظهر على يد غيره، وكانت آراؤهم ثمراتٍ متعددةً لشجرةٍ واحدة هى شجرة الكتاب والسنة، فرضى الله عنهم وجزاهم عنا خير الجزاء .

وصلى الله وسلم على معلِّم الناس الخير، نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

اللغز العجيب!!

لا صوت يعلو فوق صوت المحنة التى حلت بالأمة فى العراق وفلسطين، إنها حديث الساعة من الوزير إلى الخفير، ومن الرؤساء إلى رجل الشارع، الجميع يتحدث لغة واحدة تعى خطورة الكارثة التى حلت بالأمة، فالجميع على علم بالداء والدواء، فكلنا ينادى بأن نأخذ بأسباب النجاة والخلاص بالتوحد والتقدم والتطور فى الجانب المادى، وفى الجانب الإيمانى تنادى أصوات الدعاة بضرورة تطبيق الإسلام فى واقعنا العملى، فنحن إذا نصرنا الله فينا نصر الله الإسلام بنا .

ولكن أحدًا منا لا يفعل، وهذا «لغز عجيب» لماذا لا ننتقل إلى ساحة الفعل؟!

قد يعتذر البعض بوجود مؤامرات وعقبات، ونقص فى الإمكانات . . . إلخ . ولكن آيات القرآن ترشدنا إلى السبيل الذى نتجاوز به مساحة الكلام إلى مساحة الفعل والإنجاز الإيمانى والحضارى والتغلب على العقبات والمؤامرات، حيث أمرنا الله عز وجل بالمجاهدة، والمجاهدة حملة عملية على مظاهر الفساد فى حياتنا، والمجاهدة ثورة عملية على مظاهر الخلل فى واقعنا، والمجاهدة محاولة مستمرة على الدرب دون يأس أو إحباط، ولكن بروح الدأب والمثابرة، ومن سلك سبيل المجاهدة نال البشرى من الله عز وجل وفاز بمعونة الله وتأييده، وحصد الجائزة الكبرى وهى تحقيق الهدف، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ العنكبوت/ ٦٩ .

وكلما أحسنا المجاهدة فزنا بمزيد من معية الله وتأييده وعونه، وليبدأ كل منا بنفسه فى موقعه الذى أقامه الله فيه، فالمجاهدة فقه التغيير

للأفضل، وهى أيضًا فقه التخلى عن كل مظاهر الفساد والتخلف . وهكذا يتم الإنجاز والتغيير فى المجتمعات والأمم ، لأن البشر ليسوا آلات تتغير بالضغط على مفتاح، وإنما يكون ذلك نتاج علم وعمل ومجاهدة مستمرة، وعشرات السنين فى عمر الأمم أيام .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

المهدى الذى ننتظره!!

أهل السنة والجماعة لم يأخذوا فى مسائل العقائد إلا بالحديث المتواتر، والأحاديث التى وردت فى المهدى المنتظر ليس فيها حديث متواتر واحد، ولذلك لم يذكر أهل السنة والجماعة مسألة المهدى المنتظر فى كتب العقائد، مثل كتاب الخريدة، البيجورى على الجوهرة، والاقتصاد فى الاعتقاد .

ولكن وردت أحاديث صحيحة غير متواترة فى المهدى المنتظر، وألَّف أهل السنة والجماعة كُتبًا عنه، كما جاء ذكره فى الكتب التى تتحدث عن علامات الساعة الكبرى دون نكير من أحد يذكر .

ومن قديم الزمن استغل أعداء الإسلام مسألة المهدى المنتظر فى شغل المسلمين عن إصلاح شئونهم والنهوض بمستواهم، ، كما استغل طلاب الزعامات وأهل الأهواء مسألة المهدى المنتظر وتمسحوا فيها، لستر أغراضهم الخفية، ومنذ القرن الأول فى الإسلام وحتى الآن يظهر بين الحين والحين من يدعى أنه المهدى المنتظر، وأقربهم للذكر الجماعة التى دخلت المسجد الحرام وسفكت فيه الدماء وعطلت الشعائر، وذلك فى الثمانينيات من القرن الماضى .

وفى ظروف أمتنا المعاصرة، وفى إطار الواقع المر خرج علينا من يدسُّ شائعة مغرضة لا هدف من ورائها إلا تغييب عقل الأمة ووعيها وصرفها عن واقعها المؤلم وعن المواجهات والتحديات المفروضة عليها، وبدلًا من أن تشغل الأمة نفسها بأداء واجبها للنهوض من هذه الكبوة، تأتى شائعة البدر الذى رضع من ثدى سيدة بالمدينة المنورة فى رؤية منامية، وتأويل الرؤيا بأنها المهدى المنتظر لتنتظر الأمة العصا السحرية التى تغير حالها وتخرجها من كبوتها .

والحق أنه إن يكن من مهدى تنتظره الأمة الآن فهو: أن تتخلى الأمة عن أسباب التأخر والتخلف والانتكاس، هو أن تتخلى الأمة عن التشتت والتمزق والتفرق، هو إحياء قيم القرآن والسنة فى الأخلاق والمعاملات بدلًا من التغريب الضارب فى جوانب حياتنا، هو أن يتحول كلامنا إلى أفعال .

ولقد عالج النبى ﷺ فهمًا أخطر من هذا الفهم وذلك حين جاءه رجل فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فقال له النبى ﷺ : «وماذا أعددت لها!؟» .

هكذا يأمرنا النبى ﷺ أن نشغل أنفسنا بدورنا المطلوب منا فى واقع اللحظة التى نحياها، أما أمور الغيب فعلمها عند الله تعالى، ونترك لقدر الله تعالى . أم أن أمرنا أصبح كأضغاث أحلام للمهموم المبتلَى الذى تحدثه نفسه بعدما تمكن منا العجز بأن الخلاص والنجاة ستأتينا من العالم الآخر: عالم الغيب ، لكن هيهات هيهات! فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

الوعى المفقود

الأزمة طاحنة والمحنة قاسية، وعلى الرغم من هذا فإننا لم نستوعب الدرس مما نزل بنا، فهل آن الأوان أن نواجه السلبيات الخطيرة التى تملأ حياتنا أم سنظل مغيبين عن آلامنا وهمومنا؟ إن هذه السلبيات أخطر علينا من عدونا، ومن أخطر هذه السلبيات التى تشير إلى الوعى المفقود:

* أن تتخلف الأيدى المتوضئة عن سمة التميز فى الإنتاج وبخاصة فى إطار العولمة التى لا تعترف إلا بالإنتاج المتميز والمتفوق . فهل آن أن نحقق هدى رسول الله ﷺ فينا: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»، إن معايير الجودة قيمة إسلامية .

* ومن الوعى المفقود عندنا: أننا نريد أن ننجز الأشياء بعصا سحرية، أو بالكلمات والدعوات دون عمل جاد أو اجتهاد فى الأخذ بالأسباب .

* يا أيها الموحدون، إن الله تعالى كما أمرنا بالإيمان بالغيب فقد أمرنا أن نأخذ بالأسباب .

* ومن الوعى المفقود أن يكون منا الاندفاع والتهور والانفعالات فى أخذ القرار، وتصبح قراراتنا ردود فعل، وتملأ العشوائيات حياتنا، فى حين تعلمنا السنة النبوية المطهرة أن نتأسى برسول الله ﷺ فى التخطيط والتدبير أخذًا بالأسلوب العلمى فى التفكير والتخطيط، كما كانت الهجرة وكل مواقف النبى ﷺ فى غزواته .

* ومن الوعى المفقود أن نغفل عن ما يسمى بواجب الوقت، فلكل وقت عمله، فأنت ترى من يجلس لقراءة عدية يس تاركًا استذكار دروسه ليلة الامتحان، ولو أنصف لاجتهد فى طلب العلم من أول يوم من العام، فلكل مجتهد نصيب .

* ومن الوعى المفقود ضياع مفهوم الأمة، فما زلنا نتنازع ونتفرق رغم أن الله شرع لنا الجمعة والجماعات، وجعل قوتنا فى اجتماعنا وضعفنا فى تفرقنا .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

بين فقه الحياة وفقه الممات

من شواهد تغييب العقل وفقدان الوعى فى حياة أمتنا المعاصرة الانشغال بقضايا الغيب وترك هموم الواقع، والاشتغال بفقه الممات والغفلة عن فقه الحياة، والحديث عن الموت فى سبيل الله والانصراف عن الحياة فى سبيل الله، والنظر إلى المستقبل بطريقة العصا السحرية، وترك أقدارنا يصنعها غيرنا، فمستقبلنا بيديه لا بأيدينا، فهو الذى يُخطط لنا ليجعلنا فى إطار التبعية له فى كل شىء، أمَّا نحنُ فنظرنا إلى المستقبل مُبهم لا يقوم على تخطيط ولا علم .

وكأنى بك يا رسول الله ﷺ تنظر إلينا من عالم الغيب وتقول: «إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها قبل أن تقوم الساعة فليغرسها فله بذلك أجر» .

وفى هذا دلالة واضحة على أهمية المستقبل واغتنام كل لحظة من لحظاته، وفى موقف سيدنا يوسف - عليه السلام - رؤية ناضجة وواعية للمستقبل حين أمرهم بالتخطيط لمواجهة الأزمة، التى واجهتهم بالادخار للمستقبل:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ يوسف/ ٤٧ : ٤٩ .

والوعى بالمستقبل فى دعوة النبى ﷺ من خلال إرسال سيدنا مصعب - رضى الله عنه - ليمهد للإسلام فى المدينة ويفتحها فكريًا وقلبيًا كى لا تتكرر مأساة الطائف مرة أخرى، وكيف كانت نتائج هذا التخطيط باهرة وعظيمة .

بل إن التخطيط للمستقبل فى حياة المؤمن لا يقتصر على مستقبل دنيا الناس فقط، وإنما يمتد ليشمل مستقبل المؤمن يوم القيامة .

وقد عرض القرآن نماذج للمؤمنين وبيَّن لكل نموذج صفات وأخلاقًا كى نتخلق بأخلاقهم إذا أحببنا أن نكون معهم فى درجاتهم ومنزلتهم .

والوعى بالمستقبل لون من قراءة عوامل التغيير والتأثير على مستوى العالم، وتحديد أفضل السبل للتعامل معه، وامتلاك رؤية واضحة تقوم على الروح العلمية، لا على العشوائية والتخمين والتهور والانفعال، وإنما رؤية تجمع بين الأمل والحذر وإدراك ظروف الواقع ومُعطيات المستقبل، وأسوتنا فى هذا رسول الله ﷺ .

وإنى لأتساءل: هل نمتلك رؤية مستقبلية للتنمية الفكرية واللغوية والثقافية والدينية؟ أم أننا نسير برؤية ذاتية تتغير بتغير كل مسئول، وقد يكون بين هذه الرؤى الذاتية تضاد يضر بالأمة ومصالحها؟

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

حرية الرأى . . والإصلاح

اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلق الإنسان حرًّا مختارًا وليس مسخرًا كالكائنات التى سخرها الله لمهمة أرداها الله - عز وجل - ما دام مسئولًا عن هذا الاختيار .

حتى إن أعظم القضايا فى هذا الوجود أتاح الله للإنسان فيها الحرية، إنها الإيمان بخالق الكون - سبحانه وتعالى - قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف/ ٢٩ . وقال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ البقرة/ ٢٥٦ .

وذلك لأن الله خلق للإنسان عقلًا يفكر ويختار ويتحمل مسئولية اختياره، وذلك لأن للإسلام حكمة بالغة من وراء حرية الإنسان، وهى أن الإكراه على الفضيلة لا يصنع المجتمع الفاضل، وإنما تصنعه التربية والإقناع .

ومن جوانب الحرية التى أتاحها الله للإنسان حرية الرأى، فلعل رأيًا صائبًا يردُّ باطلًا أو يمنع شرًّا أو يدفع إلى رقى وخير . ومن هدى النبى ﷺ : «لا يكن أحدكم إمعة يقول: إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساء الناس أن تحسنوا» .

فهذه دعوة لعدم الذوبان فى الآخرين، والحث على أن يكون للإنسان رأى وموقف يقوم على مرضاة الله تعالى .

وكان النبى ﷺ يفسح لأصحابه جميعًا أن يعلن كل منهم رأيه فى المواقف المهمة، ومن ذلك ما وقع إثر غزوة حنين من إيثار النبى ﷺ قومًا ممن يرجى إيمانهم تأليفًا لقلوبهم بالغنائم دون الأنصار، فكان الأنصار فى عتاب خفى لرسول الله ﷺ فأفسح ﷺ لهم الصدر ليطرحوا

رأيهم ويناقشوا رسول الله ﷺ وكان من ثمرة حرية الرأى والتعبير عما بداخلهم أن عالج النبى ﷺ الموقف وأعلمهم رفعة منزلتهم عنده وعلو قدرهم لديه، وأن الذى أعطاه لهؤلاء من غنائم ليس لأفضليتهم وإنما تأليفًا لقلوبهم، وإلا فإن الذين أخذوا حظًّا من الغنائم سيعودون بغنائمهم وسيعود الأنصار برسول الله ﷺ .

وهذه فائدة عظيمة لحرية الرأى والتعبير، حيث إن الكشف عن مكنون الصدور وما خفى فى القلوب والعقول يمثل خطوة مهمة فى علاج الأفكار .

وقد يكون فى حرية الرأى والتعبير فائدة فى الرقى والخير كما حدث فى بدر حين نزل النبى ﷺ منزلًا فأشار عليه خباب بن الأرت - رضى الله عنه - أن هذا ليس بمنزل وأشار إليه بموضع آخر يكون المسلمون فيه فى تمكن من العدو، إن كبت الرأى وكتم الأنفاس وبخاصة للعلماء والمصلحين جريمة تؤدى إلى فساد عريض وإلى تمكن الباطل والشر، وكم رأينا فى فترات من تاريخنا المعاصر كيف أن حكم الفرد فى بعض الأنظمة العربية وما صاحبه من استبداد قد أودى بشعب وأهان أمة .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

ضربة حظ .. أم رحلة كفاح؟!

الناظر إلى الناس وأحوالهم فى المجتمع الإنسانى عامة يمكن أن يصنفهم إلى قسمين: قسم دؤوب جاد صبور مكافح .. العلم عنده حياته وعبادة . وقسم آخر من الناس دؤوب .. ولكن على القيل والقال ..

وأهل القيل والقال ساخطون دائمًا على أهل النجاح والتفوق، وهم حريصون على تذكير كل ناجح بسيرته الأولى أيام فقره وضعف حيلته وهوانه على الناس، ولا تستوعب عقول الساخطين ولا تتسع صدورهم لعطاء الله وتوفيقه لهذا المكافح المثابر، بل يرون أنه أخذ فوق حقه وأن الأمر ضربة حظ، وأمنيتهم وسعادتهم يوم أن تتحول النعمة عن هذا المكافح الناجح ليعود إلى سيرته الأولى من الفقر وضعف الحيلة والهوان على الناس .

وكأنى بك يا رسول الله ﷺ حين قلت للصحابة، بل للأمة كلها: "إن لنعم الله أعداء" فقالت الصحابة: ومن هم يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ النساء/ ٥٤ .

والحق أن نجاح كل مكافح وراءه أسباب:

الأول: العمل الدؤوب والصبر والجلد .. ومن سنن الله الكونية أن جعل النجاح للمجتهد، وجعل الفشل للكسول الخامل، وآيات القرآن الكريم تقرر هذه الحقيقة، قال الله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء/ ٩٥

الثانى: توفيق الله تعالى، وسبحان الله القائل: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هود/ ٨٨ .

الثالث: الصدق والإخلاص؛ فإن الراغب فى شىء بصدق وإخلاص يوفقه الله تعالى لنيل ما أراد، يشهد لذلك أمر الرجل الذى غزا مع رسول الله ﷺ فلما عاد النبى منتصرًا ومعه الغنائم جعل لهذا الرجل نصيبًا منها، فغضب الرجل وقال للنبى ﷺ : يا رسول الله ما على هذا اتبعتك، لكن اتبعتك على أن أُرْمَى ها هنا بسهم - وأشار بيده إلى حلقه - فأموت فأدخل الجنة . فقال النبى ﷺ : «إن صدق الله يصدقه» . وبالفعل فى الغزوة التالية حقق الله أمنية الرجل فكان شهيدًا لصدقه وإخلاصه .

وليحذر هؤلاء الناقمون الحاقدون الحاسدون أن يكونوا كأبى جهل والمشركين الذين نظروا إلى رسول الله ﷺ على أنه اليتيم الفقير فكيف يكون نبيًا رسولًا؟! وإلى ذلك أشار القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ الزخرف/ ٣١ . فحرمهم الله نعمة الإيمان به وشرف الانتساب لخير أمة أخرجت للناس، وليعلم الحاسدون الحاقدون أن الأمور كلها صغيرها وكبيرها يتم بقدر دقيق من الله . . قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ القمر/ ٤٩ .

فالأمر إذن ليس مصادفة ولا ضربة حظ . . بل رحلة كفاح وقصة نجاح تمت بتوفيق الله تعالى وفضله، والباب مفتوح لكل صادق مخلص، واسألوا الله من فضله .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

أمراض البطالة

الشباب طاقة لا تهدأ، إن لم تُوَجَّه إلى خير فإنها إلى شر . ومن أخطر المشاكل التى تؤثر سلبًا فى الشباب مشكلة البطالة .

وأمراض البطالة كثيرة وخطيرة ومتنوعة، اقتصادية واجتماعية وأخلاقية وسياسية . . إلخ . بداية من سوق الوهم فى مكاتب توظيف الشباب، ومرورًا بسقوط الشباب ضحايا تحت وطأة الحاجة والعوز فى حبائل عصابات المخدرات إما بالاتجار أو بالتعاطى أو بالتهريب باستغلال الوجوه الجديدة غير المشبوهة لدى الأمن، كما نشأت أيضًا فى بعض الأماكن الشعبية سوق للبلطجة لتأجير البلطجية لأغراض الأذى والكيد، وهناك أيضًا سوق الهتيفة وأغلبهم من طلبة الجامعات للمطربين الكاسدين وكذلك فى الدعاية الانتخابية . . . إلخ .

ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد بل استفحلت أمراض البطالة حيث تفشى الآن الاتجار بالوظائف وفرص العمل، وأصبحت هنالك تسعيرة لكل فرصة عمل أو وظيفة، ورأينا كذلك توريث الوظائف فى كثير من المؤسسات؛ ولا عزاء للمواهب والكفاءات!!

ومن أخطر أمراض البطالة أن تفقد المعرفة قيمتها وتتعاظم قيمة المنفعة المادية، فتنتشر الدروب السرية حيث تباع الذمم والأعراض تحت ستار مكاتب توظيف العمالة وحتى أعضاء الإنسان أصبح لها سوق فى بعض المعامل والمستشفيات الخاصة!!

وأمام ضغط البطالة يُستهدف الشباب وتعرض عليه الجميلات اليهوديات، وتفتح له أبواب الثراء والأمل فى المستقبل، ويشترى اليهود الشباب بالمتعة والمال تأسيسًا لوجود قانونى لهم فى مصر .

وبعد رصد هذا الواقع المريض الذى استفحلت علله، فإن القانون وحده لا يكفى لمواجهة هذه العلل، ومواجهة البطالة هى الأساس فى

العلاج، والعجز الحكومى أمام هذه المشكلة واضح للعيان، والمخرج والأمل يتأتى فى تعظيم دور الجهود المدنية فى إنشاء مؤسسات بجهود أهل الخير وفكر ورعاية رجال الأعمال كلٌّ فى مجاله، ولنبدأ بالمشروعات الصغيرة .

ولنا أسوة فى سيدنا رسول الله ﷺ كيف حوَّل البطالة والاستهلاك إلى عمل وإنتاج، وذلك حين جاءه ﷺ سائل، ولمح فيه ﷺ القدرة على العمل، سأله ﷺ عن ممتلكاته، فكانت قليلة زهيدة الثمن، فأخذها النبى ﷺ وأقام عليها مزادًا ليصل إلى أعلى سعر لهذه البقايا التى فى بيت الفقير . ثم اشترى له ﷺ أدوات الإنتاج، ثم أرسله ﷺ للعمل وقال له: «لا أرينك خمسة عشر يومًا»، وذهب الرجل واغتنم الفرصة التى هيأها له رسول الله ﷺ، واجتهد فى العمل، وعاد بعد الأيام الخمسة عشر وقد غنم الربح والكرامة، فأثنى عليه ﷺ .

ولفت النبى ﷺ أنظارنا إلى قيمة هذه التجربة فى مواجهة البطالة، قال ﷺ: «لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره، فيتصدق منه، ويستغنى به عن الناس، خير له من أن يسأل رجلًا، أعطاه أو منعه، ذلك بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول» .

وخلاصة هذا الموقف أن نتعلم كيف نهيأ الفرصة وكيف نتابعها ونتعهدها كى تنجح .

وكان من سياسة النبى ﷺ وخلفائه الراشدين الإقطاع من هذه الأراضى البور لمن أدَّوا خدمات ممتازة للدولة الإسلامية، فهى مكافأة لهم من جهة وتشجيع على استصلاحها من جهة أخرى، وكذلك إقطاع الأرض البور لكل قادر على إصلاحها .

ومَن قُطع له من هذه الأرض مساحة معينة، ثم تركها بغير أن يعمرها

ويصلحها كان لولى الأمر أن ينتزعها منه، ويعطيها لغيره ممن يقوم بإحيائها .

وقد روى أبو عبيد وغيره عن بلال بن الحارث المزنى: أن النبى ﷺ أقطعه العقيق - أرضًا بالمدينة - فلما كان زمان عمر، قال لبلال: إن رسول الله ﷺ لم يُقطِعك لتحتجزه عن الناس، وإنما أَقْطَعكَ لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته، ورُدَّ الباقى .

وعن عبد الله بن عمر قال: كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يخطب على هذا المنبر يقول: «يا أيها الناس من أحيا أرضًا ميتة فهى له»، وذلك أن رجالًا كانوا يحتجزون من الأرض ما لا يعمرون .

وكان من سُنَّة عمر - رضى الله عنه - تشجيع الأفراد العاملين على زيادة الإنتاج كنافع أبى عبد الله الذى كتب إلى واليه بالبصرة فى شأنه يقول: «أما بعد، فإن أبا عبد الله ذكر أنه زرع بالبصرة، وافْتَلَى أولاد الخيل (رعاها بالفلاة) حين لم يَفتلها أحد من أهل البصرة، وإنه نعم ما رأى، فأعِنْهُ على زرعه وعلى خيله، فإنى قد أذنت له أن يزرع، وآته أرضه التى زرع، ولا تعرض له إلا بخير . . .» .

ولا بد من مساندة الحكومة لهذه الجهود المدنية بإعفائها من الضرائب وتيسير الإجراءات؛ لأنها لون من الاستثمار الذى أصبح ضرورة حياتية وحضارية، لأن البطالة انهيار لقيم المجتمع واقتصاده .
﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ المائدة/ ٢ .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

أمريكا واحتلال العقول

الغزو الاستعمارى الأمريكى لا يقتصر على احتلال الأرض ونهب الثروات، وإنما مع ذلك يحاول بقوة احتلال العقل لتغريب الفكر تحت ستار الإصلاح والتطوير، وذلك كى تكون التبعية للنموذج الأمريكى هى خيارنا الذاتى .

وأمريكا تدرك جيدًا أن القرآن الكريم، وراء خلود هذه الحضارة الإسلامية، قد تضعف بتراجع أهلها وتخلفهم، لكنها لا تموت، فهى دائمة بدوام القرآن، وتدرك أمريكا أن حركات الإحياء لهذه الأمة كانت بالقرآن الكريم، ومن هنا حملت أمريكا فى غزوها الثقافى على القرآن الكريم، من خلال الأباطيل التى تنشرها للتشكيك فى آياته ومحاولة حذف بعض آيات القرآن الكريم، وبتأليفها كتابًا تزعم أنه الفرقان الأمريكى الجديد، والدعوة إلى ترجمة ألفاظ القرآن وليس معانيه إلى اللاتينية، يضاف إلى هذا حملتها على عربية القرآن، والدعوة إلى تدريسها بالإنجليزية .

وأمام الحملة الأمريكية لاحتلال العقول وتغريب الفكر ينبغى أن ندرك دورنا فى المواجهة وألا نتخلف عنه، وإن كانت الحكومات العربية والإسلامية معذورة بسبب الضغوط الرهيبة التى تتعرض لها، فإن المجتمع المدنى (الأهلى) بيده الكثير من حركة الإحياء لهذه الأمة، بالالتفاف حول القرآن الكريم وكشف الأباطيل والسموم التى ينشرونها من خلال إعلامهم، وأن نكون على مستوى المواجهة، بأن يكون فضح هذه الأساليب قائمًا على الأسلوب المقنع بالحجة والدليل، خاليًا من السب والشتم والانفعال الطائش .

كما تتأكد ضرورة الاجتهاد فى إظهار نواحى العظمة وجوانب الإعجاز فى القرآن الكريم فيكون دافعًا لربط أبنائنا بالقرآن .

ومن المهم أن نعيد النظر فى علاقة أبنائنا بالقرآن، فلا تقتصر على الحفظ دون الفهم، بل ينبغى أن نقدم الفهم على الحفظ، وأن نعظم من شأن تحول الآيات إلى فعل وعمل، ويرحم الله عبد الله بن عمر حين قال: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ لا يحفظ إلا السورة أو السورتين، لكنه رزق العمل بالقرآن، وإنما آخر هذه الأمة يقرأون القرآن حتى الصبى منهم ولكنهم لا يرزقون العمل به .

فالأولوية ينبغى أن تكون للفهم والتدبر وفقه مقاصد القرآن والعمل به، فى حين أن الاحتفاء بالحفظ فقط - على ما فيه من فضل ونفع - فيه دلالة على تراجعنا الحضارى .

ونحن نرى الجوائز القيمة التى ترصد للحَفَظة - وهو أمر محمود - لكننا لا نرى مثل هذه الجوائز للفهم والعلم بمقاصد القرآن .

وفى حديث البخارى ومسلم نرى أن النبى ﷺ يمثل أنواع الناس فى استفادتهم وفقههم وعلمهم للقرآن والسنة بأنواع الأرض، وجعل أعلاهم منزلة وأرفعهم درجة هو الذى حاز الفهم والفقه تعلمه ويُعَلِّمُ غيره، قال النبى ﷺ: « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل مَن فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به، فعلِم وعلَّم، ومثل مَن لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

الأمومة بين الحضانة ودور المسنين

خَصَّ الله المرأة بامتياز عظيم لم يَحْظَ به رجل قط، ونالت المرأة تكريمًا من ربها فى الدنيا والآخرة بسبب هذا الامتياز، إنه امتياز الأمومة .

وإذ نقدم التهنئة للأم بهذا الامتياز، فإننا نذكِّرها بدور الأمومة حيث تحتضن الأم أبناء الأمة، ومستقبل الأمة . . فالأمومة عطاء نبيل أعلى الله من شأنه ورفع من قدره فجعل الجنة تحت أقدام الأمهات، وجعل البر بالأم من أسباب تفريج الكربات، كما ظهر من حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فوقعت صخرة أغلقت عليهم باب الغار، فكان مما توسلوا به «البر بالوالدين»، ففرج الله كربهم وكتب لهم النجاة .

إن الأمومة وسام على رؤوس الأمهات، استحقت به المرأة الجنة والمقدمة فى منازل التكريم الإلهى .

ولا تنال الأم وسام الأمومة بالإنجاب وحده، وإنما الأُمُّ أمٌّ بالتربية والعطاء والتضحية، ولذلك فإن من ترضع وتربِّى تكون أمًّا من الرضاعة، ويكون لها من الحقوق والرعاية ما يكون للأم التى حملت، وذلك لدعم الكيف قبل الكم، ولتنجب الأم خير أمة أخرجت للناس، وكى لا نكون أكثرية كغثاء السيل كما أخبر النبى ﷺ .

ولقد أوصى النبى ﷺ بالأرملة التى آثرت رعاية أولادها على حظ نفسها؛ تقديرًا لدور الأمومة التربوى، وجعل النبى ﷺ من الأعمال الصالحة الباقية للإنسان بعد موته ولد صالح يدعو له .

ووافدة النساء التى جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله عن مصير النساء من الثواب والأجر عند الله، وليس لهن من أعمال البر العظيم ما يتيسر للرجال كالجهاد والنفقة والصدقة . . . إلخ، وأُعجب النبى ﷺ بسؤالها، ولفت أنظار صحابته الكرام - رضوان الله عليهم - إلى ذلك قائلًا ﷺ:

«ألا ترون إلى حسن منطقها؟!»، ثم أجابها ﷺ بأن حسن التربية لأولادها، والرعاية لزوجها عمل عظيم عند الله يعدل ويساوى الأعمال المجيدة التى يقوم بها الرجال، فقال ﷺ : « حسن تَبَعُّل المرأة فى بيت زوجها يعدل ذلك كله » .

ولكن طغيان الجانب المادى الحسى فى الحضارة الحديثة والانبهار بها والتقليد الأعمى لها، نقل إلى مجتمعنا فى مجال الأسرة عادات سيئة من أبرزها تنازل كثير من النساء عن دَوْر الأمومة، حيث تلقى بأطفالها الرضع إلى الخدم أو فى دُور الحضانة، فينشأ الطفل محرومًا يفتقد حنان الأم ومشاعر الأمومة، ولم يصبح للطفل من الوالدين إلا رعاية المأكل والمشرب والملبس ونفقات المدرسة، أما الجانب التربوى الإيمانى والأخلاقى فيقوم به غير الآباء .

وماذا ننتظر من الأبناء بعد أن تربوا على القيم المادية الاستهلاكية، وحرمناهم من التربية على موائد القرآن والسنة؟!

ماذا ننتظر منهم بعد أن غرسنا فيهم الجحود والنكران؟!

ماذا ننتظر منهم بعد أن انتقصناهم من نعمة الأمومة؟!

فإذا غربت شمس العمر وأدركتنا الشيخوخة، أودعونا فى دور المسنين نجلس فيها ننتظر لحظة النهاية . . لحظة الموت .

وهكذا: عققناهم صغارًا فجحدونا كبارًا . ولا غرابة، فهذا حصاد ما غرست أيدينا!!

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

الآن .. وليس غدًا

يسجل القرآن الكريم التجربة الأولى فى تاريخ البشرية، حين واجه آدم - عليه السلام - أمر الله وعهد الله إليه أن يأكل من كل الثمار فى الجنة إلا من شجرة واحدة ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ البقرة/ ٣٥ .

تمثل هذه الشجرة المحرمة المحظور الذى لا بد منه لتربية الإرادة وتأكيد العزيمة والتحرر من رغبات النفس وشهواتها، بالقدر الذى يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق، فلا تستعبدها الشهوات ولا تقهرها الرغبات .

وهذا هو مقياس الرقى الإنسانى فى الإسلام، فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها، كانت تلك النفس فى أعلى درجات الرقى البشرى، وهكذا صرح القرآن الكريم بالسبب الحقيقى لفشل آدم - عليه السلام - فى تجربته الأولى، فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ طه/ ١١٥ .

وبدون العزيمة نجد علل التراخى وآفات التسويف التى تقضى على الجدية وعلو الهمة فى إنجاز الطموحات وتحويل الأفكار والأحلام إلى واقع، لذلك أمرنا الله - عز وجل - بعلو الهمة فى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ البقرة/ ١٤٨ .

ويقدم القرآن الكريم سبلًا لتقوية العزيمة:

* **أولها**: الإيمان الصادق؛ فحين يقتنع الإنسان ويؤمن بهدفه الذى يسعى إليه، سيبذل فى سبيله كل الوسع والطاقة للوصول له؛ ولك أن تتأمل معى موقف هذا الصحابى فى صبيحة أول ليلة من عرسه كيف سارع إلى الجهاد لينال الشهادة، هل دفعه إلا الإيمان الحى فى قلبه؟!

* **ثانيها**: الاستعانة بالله - عز وجل - وعدم الوقوف عند نقطة الفشل يبكى عليها ولا يفكر فى غيرها، ويتضح ذلك من قول النبى ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل: لو كان كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل».

* **ثالثها**: العلم؛ حتى يتحرك المسلم على هدى وبصيرة؛ بعيدًا عن العشوائية والتخبط، ومن هنا كانت الاستشارة لأهل الذكر كلٌّ فى علمه وفنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل/ ٤٣.

* **رابعها**: العمل، فلا ينتفع الإنسان بعلمه ما لم يعمل به، ولا شك أن البيئة الصالحة - من جماعة المؤمنين العابدين المخلصين - خير معين على العمل الصالح، وبركة القرآن لمن يعمل به.

* **خامسها**: الصبر أثناء العمل، ومواجهة العقبات، ومَنْ يتصبَّر يُصَبِّرْه الله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ البقرة/ ١٥٣وهذه العناصر السابقة هى معنى المجاهدة، التى بشر الله أهلها بأنهم واصلون لهدفهم محققون لغايتهم بمعونة الله وهديه حين قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ العنكبوت/ ٦٩.

وهكذا يعلِّمنا الإسلام الفورية فى إنجاز الأعمال، وأن نستفيد بما فى أيدينا من فرص متاحة، بدلًا من التسويف انتظارًا لغد أفضل، ومن يدرى؟ فقد يأتى الغد بظروف لا تكون خيرًا مما أنت فيه.

فيا صاحب الآمال: قم واستعن بالله ولا تعجز، وابدأ الآن، وليس غدًا؛ فالغد ليس ملكًا لنا.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

البيئة .. علم إسلامى

الإنسان له قدر كريم وقيمة غالية عند الله تعالى، فلقد كرمه الله تعالى وأنعم عليه، فسخر له ما فى السماوات وما فى الأرض، وعشرات الآيات تؤكد هذه الحقيقة، من ذلك قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ لقمان/ ٢٠ .

وحين يتأمل الإنسان ما حوله من مفردات الأشياء (البيئة) يرى جوانب هذه النعم، فالماء عذب فرات وليس ملحًا أجاجًا، وجعله الله متاحًا لنا ولم يجعله غورًا لا نستطيع له طلبا، وألقى الله فى الأرض رواسى كى لا تميد بنا .. إلى آخر النعم التى لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى من حولنا .

وكى يستمر الانتفاع بهذه النعم شرع الله هديًا قرآنيًا يمكِّن الإنسان من التعامل مع البيئة؛ يتركز فى محاور ثلاثة هى:

الأول: تشريع وقائى:

من خلال إرشاد الإنسان إلى المحافظة على سلامة هذه النعم (البيئة) وعدم الإفساد فيها، وإلا عوقب المفسد للبيئة فى الدنيا والآخرة .

فأما فى الدنيا فالضرر الحادث بسبب إفساد هذه النعم (البيئة)، من ذلك قول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ الروم/ ٤١ .

ولا يخفى على أحد أضرار التلوث من أمراض شتى تفتك بالناس، والمتأمل فى الهدى الوقائى من القرآن والسنة يرى أن الله نهانا عن أن نفسد فى الأرض بعد إصلاحها، ونهانا رسول الله ﷺ أن نتبول فى الماء الجارى، أو أن نتغوط فى طريق الناس، ولو أننا اتبعنا هذا التوجيه

النبوى الكريم لقضينا على البلهارسيا ذلك المرض الفتاك الذى يؤثر على ثروتنا البشرية بالسلب، ثم يؤثر على دخلنا القومى، ولكان القضاء على ذلك بدون تكلفة، بمجرد اتباع سنة نبينا ﷺ .

كما نهانا النبى ﷺ أن نقطع شجرة يستظل بها الناس، أو أن نأكل ثومًا أو بصلًا ثم نحضر الجماعة لأن الرائحة الكريهة تؤذى الآخرين، ونهى القرآن عن التلوث الصوتى، قال تعالى:

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ لقمان/ ١٩ .

والقاعدة الإسلامية العامة فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : «لا ضرر ولا ضرار» فكل من يتسبب فى إضرار غيره بأدخنة السجائر مثلًا، أو عادم السيارات أو إلقاء الفضلات الضارة التى تكون منبعًا للكائنات الضارة من حشرات وبكتريا . . وما إلى ذلك- فكل هذا يقع تحت المحرمات بحديث «لا ضرر ولا ضرار» .

الثانى: تشريع علاجى:

فكما أمرنا الله أن لا نتسبب فى الإضرار بالبيئة، فقد أمرنا رسول الله ﷺ بدفع الضرر الذى تتعرض له البيئة من غيرنا (كتشريع علاجى عند وقوع الضرر) ، وجعل ذلك عملًا صالحًا تغفر به الذنوب وينال به رضا الله تعالى .

وعشرات الأحاديث تؤكد هذا المعنى، من ذلك قوله ﷺ : « إماطة الأذى عن الطريق صدقة » . وذكر النبى ﷺ أن رجلًا مشى فى طريق فوجد فيه شوكًا يتأذى الناس منه فنحاه عن الطريق فشكر الله له وغفر له .

الثالث: تشريع التعمير والتنمية:

من خلال الترغيب فى الإضافة للبيئة ليكون الإنسان دعمًا لها لا عبئًا عليها، فالنبى ﷺ قال: « من غرس غرسًا أو زرع زرعًا فأكل منه إنسان

أو طير أو حيوان كان له بكل ذلك صدقة »، وقال أيضًا: « إذا قامت الساعة على أحدكم وفى يده فسيلة فليغرسها » .

وصدق الله العظيم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ الأنعام/٣٨ .

وعلى هذا نرى أن الإسلام لم يترك أى مجال إلا واعتنى به وحدد له ضوابط وقوانين وثوابًا وعقابًا، فلنتخيل إذا اتبعنا تشريعات الإسلام فى البيئة من تشريع وقائى وعلاج وتعمير وتنمية، فكيف يكون حالنا من نظام ونظافة ؟! سوف تصبح شوارعنا نظيفة بأقل مجهود لعدم إلقاء أى شخص أى شىء على الإطلاق، فلا يجد عامل النظافة كبير جهد فى عمله، ولا نستمع إلى ضجيج أداة التنبيه للسيارات الذى يصيبنا بضعف السمع، ولا يترك صاحب سيارة سيارته بدون إصلاح فتخرج سموم العادم إلى أجهزتنا فتصيبها بالتلوث والأمراض الخطيرة التى تنهك صحتنا وتضعف قوتنا، وكل ذلك يؤثر على الثروة البشرية لضعف صحة وقدرات وكفاءة العنصر البشرى، فيؤثر سلبًا على زيادة الإنتاج ويقلل الدخل القومى، فالكل داخل دائرة واحدة متكاملة إذا فسد منها شىء فسد الباقى معه، وإذا صلح صلح الكل .

والحل بسيط: بالرجوع إلى شريعتنا وما حددته لنا من قوانين وأنظمة وشرائع حتى فى نظافة البيئة المحيطة بنا .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

التدين السلبى

*** خصام الحياة:**

الإسلام حريص على أن يدفع أتباعه إلى الإيجابية فى حركة الحياة، ويحمل على صور التدين الزائف المشوش الذى يقلب الحقائق ويعكس الأوضاع لخلل فى التفكير وقلة وعى فى الإدراك .

لكن أناسًا ينتسبون لدين الله تعالى تجد منهم التماوت والخمول والكسل، ويرغِّبون فى الفقر وقلة ذات اليد تحت دعوى الزهد، والزهد منهم برىء، فالزهد معناه: أن تملك فتزهد .

ومنطق هؤلاء يجتث الحياة من جذورها، فماذا يكسب الإسلام عندما يطلِّق المسلمون الدنيا ويتزوجها غيرهم؟ إن السلبية لا تخلق بطولة، والفشل فى كسب الدنيا يتبعه فشل فى نصرة الدين،ومن قال إن الدين عدو للدنيا، وإن من التقوى أن يعيش المسلم فى ثياب بالية، جاهلًا بحقائق الحياة، يعانى كآبة المنظر فى الأهل والولد؟ واختلال عقول هؤلاء أنشأ أجيالًا من المسلمين لا تفقه دينًا ولا تملك دنيا .

إن القصور فى فهم الدنيا، والغربة على سطح الأرض، والعجز عن امتلاك زمام الحياة لا يدل كل ذلك على تقوى، بل يدل على طفولة فكرية تضر بالدين وتسقط ألويته .

ماذا يفيد الإسلام من رجل مكَّن الله له فى الأرض فخاصمها ولم يتمكن؛ وجعلها الله له ذلولًا لينتفع بها فإذا هو كسول خمول لا يمشى فى مناكبها وحرم نفسه من نعم الله ؟!

إن التعريف بالآخرة ليس تجهيلًا للدنيا أو صرفًا للناس عنها، إذا أحببت أن تصلح التعليم وأن تقتحم المستقبل وأن تبنى المؤسسات، وأن تسهم فى الاكتشافات والاختراعات، هل يمكن أن يتحقق ذلك

بالعزلة؟! وهل يقبل عاقل الجهاد بالعصا فى وجه دبابة أو فى وجه التفجير الذرى؟!

إن مثل هذه الأجواء تجعلنا نخشى على المستقبل؛ فإن التاريخ يصنعه الأقوياء، وإن الحياة يملكها من اجتهدوا فى طلبها ووقفوا على أسرارها، ولا عزاء للضعفاء!

لا بد من نهضة العلماء لتبرئة الدين من هذا العوج، وتصحيح المفاهيم وفق ما جاء به القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية المطهرة، ومعلوم لدى أهل العلم أن الدنيا لها وجهان: دنيا محمودة، ودنيا مذمومة . فالدنيا المحمودة هى التى أمرنا الله بها، وأثنى عليها سيدنا رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ البقرة/ ٢٠١ . وقال النبى ﷺ : «نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح» .

أما الدنيا المذمومة فهى النزوات المحرمة، والإفساد فى الأرض، والتعالى والتكبر والطغيان . . . إلى آخر صور العصيان التى نهانا ربنا عنها .

يتضح من ذلك أن الدنيا تحمد أو تذم بحسب حركة الإنسان فيها، فإن كانت خيرًا فهى دنيا محمودة، وإن كانت شرًّا فهى دنيا مذمومة .

*** آيات القرآن لترويج السلع!!**

صلة المسلم بالقرآن تقوم على محورين:

الأول: الوعى والفهم والإدراك لحقائق هذا الكتاب الذى أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وبناء خير حضارة لخير أمة أخرجت للناس .

الثانى: بعد الوعى والفهم تأتى أهمية الاستجابة للآيات كى يتحول الوعى والفهم إلى واقع فى السلوك والعمل .

لكن حين يضعف الوعى ويغيب العقل، تضطرب الصلة بالقرآن، فلا وعى ولا عمل، بل يطرح الناس القرآن على هامش حياتهم، يجعلونه زينة على الحوائط والسيارات وأحجبة وتمائم مع النساء، يتعاملون مع الآيات على أنها العصا السحرية التى يلجأون إليها لتحقق لهم رغباتهم دون جهد ولا عمل .. لكن هيهات هيهات!!

وأدهى من ذلك وأخطر أن تصبح الآيات القرآنية أداة للتربّح والكسب ووسيلة لترويج السلع، ولا يبالى هؤلاء التجار أنهم انتكسوا بقدسية الآيات أو أنهم أخطأوا فى الاستدلال بها . فهذا محل (كوافير) كتب الآية: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ الأحزاب/٤٩ . وهذا محل للدرّاجات كتب الآية: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ الأنبياء/٣٧ . وهذا محل للعصير كتب الآية: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ الإنسان/ ٢١ . وغير ذلك كثير من الخروج بآيات القرآن عن معناها وعن مقصودها .

لقد نهى النبى ﷺ عن الحلف لترويج السلعة، حتى وإن كان الحالف صادقًا؛ تنزيهًا لجلال قدر اسم الله تعالى عن هذه الأغراض الدنيا، ووضح ﷺ أن الحلف وإن ساعد على رواج السلعة بسبب تأثيره المعنوى على الناس فى الإقبال على الشراء، فإنه يمحق الكسب ويذهب ببركة الربح؛ لأن الله يبغض هذا العمل .

وكذلك التربُّح بالآيات القرآنية قد يحدث رواجًا للسلعة ولكن من جانب آخر يذهب ببركة الربح، ويوقع الإنسان فى الإثم .

إن من يرغب فى تحصيل بركة القرآن عليه بالتأدب بأدب القرآن والتخلق بأخلاق القرآن، وتحليل حلاله وتحريم حرامه، فبركة القرآن لمن يعمل به .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

الرحمة وأوهام العصاة

قام حوار بينى وبين شاب طموح مجتهد، بدأنى بصوت لاهب ينعى على الفهم المضطرب والمعوَجَّ لكثير من معانى الإسلام العظيمة، وبدأ بعرض فهم كثير من المسلمين لمعنى الرحمة؛ إذا أهمل عامل وضيَّع حقوقًا أو أساء إلى الآخرين، طالب البعض برحمته فلا يُعاقَب مسىء ولا يُلام مهمل! ويسأل: هل الرحمة عاطفة تضيع معها الحقوق وتسقط الواجبات؟!

وامتد الحديث بيننا إلى صورة أخرى من صور الفهم المعوج لمعنى الرحمة، حين يتخذ العصاة من الرحمة سُلَّمًا للمعصية وسبيلًا للسلامة من العقاب، وحجتهم: يا أخى نحن بشر ولسنا ملائكة، ورحمة ربنا واسعة، وربنا قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأعراف/ ١٥٦ .

والحق أن هذه الحجج ومثلها من تلبيس إبليس على الناس، وليس معنى سعة رحمة الله فتح الباب أمام العصاة، وليست الرحمة عاطفة لا عقل معها أو شفقة تتنكر للعدل . وقد ضرب الإمام الغزالى رحمه الله مثلًا يرد به على الذين يتعللون بأن رحمة الله وسعت كل شىء فلا يبالون بفعل المنكرات وارتكاب المعاصى؛ قال رحمه الله: لو أن هناك قاعة تسع ألف جالس، ولكن لا يؤذن بدخولها إلا لمن يحمل بطاقة محددة، فإذا رفض البعض حمل هذه البطاقة المعهودة فحرموا من الدخول، هل ذلك عيب فى سعة القاعة، أم العيب فى تكاسلهم عن استيفاء الشروط!

وليت هؤلاء يقرؤون الآية حتى آخرها؛ قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الأعراف/ ١٥٦-١٥٧ .

فطريق الفوز برحمة الله تعالى - كما توضح الآية - لأهل الإيمان والتقوى والاقتداء بسيدنا رسول الله ﷺ .

وتشير آية أخرى إلى قرب رحمة الله من المحسنين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف/ ٥٦ .

وفى المقابل يبين الله فى الحديث القدسى أن العدالة الإلهية لا تسوِّى فى عطاء الرحمة بين الصالح والطالح، قال الله تعالى فى حديثه القدسى: «ما أقل حياء من يطمع فى رحمتى بغير عمل، كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى» .

وقد تأخذ الرحمة شكلًا قاسيًا وصورة مؤلمة فى ظاهرها فى بعض الأحوال؛ فرحمة الطبيب بالمريض بأن يمد المشرط يستأصل الداء، وقد يدفع الأب ولده إلى المدرسة والعمل فى جو ممطر أو فى حر وازدحام . ومثل ذلك من الأفعال التى يكون فى ظاهرها الشدة والألم وفى باطنها الرحمة؛ فحين يؤخذ على يد المسىء ويعاقب على إساءته لينتظم العمل فذلك عين الرحمة .

أما مجال الرحمة فى الإسلام فيكون بالتعاطف مع أهل الاحتياج والأعذار من الفقراء والمساكين والأرامل والمصابين والمرضى ونحو ذلك، ويمتد مجال التراحم ليشمل الحيوان فلا نحمل عليه فوق طاقته أو ندعه بلا طعام ولا شراب ونحو ذلك، وفى الحديث الذى رواه مسلم، أن النبى ﷺ قال: «بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيه فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى! فنزل البئر فملأ خفَّه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له»، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا فى البهائم لأجرًا؟! فقال ﷺ : «فى كل كبد رطبة أجر» .

ورحمة الإنسان بنفسه أن يلزمها طاعة الله تعالى وأن يباعد بينها وبين المعاصى .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

الشيخ أحمد ياسين

عظيم فى حياته عظيم فى مماته

هكذا العظماء حياتهم قصة كفاح ورحلة جهاد، ومماتهم يكتب لهم الخلود فى سجل العظماء، ويجعلهم رموزًا تتألق فى التاريخ تتعلم منها الأجيال دروس التضحية والفداء .

ويتفاوت الناس فى مستوى العظمة بقدر آثارهم فى الحياة والتاريخ، ولقد كان أثر الرجل عظيمًا فى الجهاد والدعوة وفعل الخيرات .

وعلى قدر الإخلاص يكون التوفيق من الله، ومن صَدَق يَصْدُقه الله . وبمثل هؤلاء تكون عزة الإسلام، والشيخ أحمد ياسين ليس حيًّا عند ربه حياة الشهداء فحسب، بل إن حياته باقية فى الدنيا ممتدة فى هذا الشباب المجاهد الأبى الذى أوقدت دماء الشيخ فيهم روح الفداء والتضحية فى سبيل الله .

ولعل فى هذا درسًا بليغًا لمن جلسوا يتسولون السلام من عدو مخادع، عدو يطيح بالرؤوس المرفوعة ليرهب بها بقية الرؤوس، وكأنه يقول للجميع: إما أن تنتكس هذه الرؤوس وإما أن ينالها ما نال الشيخ أحمد ياسين .

والشيخ أحمد ياسين حسم هذه المساومة واختار أن يموت شهيدًا شريفًا مجاهدًا بدلًا من أن يتسول السلام من عدو غادر .

وهكذا حال من سعى لمرضاة ربه فله التكريم من الله تعالى فى حياته وفى مماته، وأرجو أن لا نظلم الشيخ أحمد ياسين، وأن لا نظلم تضحيته وجهاده واستشهاده، إن إعلان الغضب وحده لا يكفى بل لا بد من العمل، ولتجعل فصائل الجهاد والتحرير فى فلسطين من استشهاد أحمد ياسين سببًا قويًّا لتوحدها واجتماعها، وأن يُقدم الساسة فى

اجتماع القمة على اتخاذ مواقف فعلية وأن لا يكتفوا بالمواقف الكلامية من الشجب والتنديد .

نحن جميعًا مطالبون بأن نكون قولًا وفعلًا على مستوى عظمة هذا الشهيد .

وهنيئًا له بما أعده الله له من المنازل العالية فى الجنة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ آل عمران/ ١٦٩ .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

اغتراب الشخصية العربية

فى إطار العجز الذى تمكّن من الأمة العربية، تعيش الشخصية العربية حالة اغتراب عجيبة، نتجت عن غياب الإنسان العربى عن ساحة الفعل والتأثير، بالإضافة إلى ما يتعرض له الإنسان العربى من قمع واضطهاد اجتماعى من بعض المؤسسات، إلى جانب ندرة فرص العمل وشيوع البطالة، والخوف من المستقبل، ومحاولات تغريب الفكر واحتلال العقل، فضلًا عن نهب الثروات فى الأرض العربية المحتلة .

ومظاهر الاغتراب واضحة فى شتى جوانب الحياة العربية، فالاغتراب داخل فى نسيج حياتنا الثقافية والاجتماعية المعاصرة . ولما كانت اللغة مرآة المجتمع، فألفاظ اللغة العربية شاهد قوى على تغلغل حالة الاغتراب فى صميم حياتنا، حيث تمتلئ اللغة العربية بالكلمات الدالة على الاغتراب ومظاهره، من خوف وقلق وإرهاب وعنف وبطش واضطهاد وقهر وظلم وعسف وتسلط . . . إلى آخر هذا القاموس الذى يجسد حالة الاغتراب تلك، فما العنف والبطش والاضطهاد سوى الوجه الآخر للاغتراب، العنف يولد الاغتراب، ويؤدى إلى الاغتراب أيضًا، والعلاقة بين هذين القطبين علاقة جدلية، فكلاهما قد يكون السبب وقد يكون النتيجة، فالطفل الذى يواجه العنف داخل مجتمعه يختزن هذا العنف ليمارسه فى المستقبل .

ويزداد الأمر خطورة حين يصاحب هذا العنف ظلم وقهر واغتيال لأحب الناس إلى قلوبنا، على نحو ما نرى من مآسٍ وفواجع على أرض فلسطين والعراق، حتى صار أهل الوطن غرباء فى أوطانهم، ولن تنسى هذه الأجيال لليهود والأمريكان ما يمارسونه ضدهم من قهر وعنف .

وتبرز مظاهر الاغتراب فى بعض أساليب التربية والتنشئة الاجتماعية، حيث ينشأ الطفل العربى فى جو مشحون بالعنف

والقهر، فيتحول الطفل إلى كيان انطوائى ويفقد الثقة فى نفسه، وتضعف عنده القدرة على الإنجاز وتحقيق الذات، وتتوارى روح المبادرة والرغبة فى التعاون والعمل الجماعى، ويعمل هذا كله على تغريبه ودفعه إلى دوامة العجز والنقص والإحباط .

إن الاغتراب يسلب الإنسان صفة الإنسانية ويحوله إلى (شىء) خالٍ من الروح المبدعة والشخصية المبتكرة، ويؤدى إلى انهيار الروح الفردية تحت وطأة احتلال الأرض ونهب الثروات واحتلال العقل وتشويه الفكر .

إن الاغتراب الذى يشعر به الإنسان العربى مرجعه - فى الأعم الأغلب - إلى خمسة أسباب:

* **الحرمان من المشاركة فى السلطة**: وهذا هو البعد السياسى لمفهوم الاغتراب، فالحرمان من المشاركة فى السلطة ينتج عنه شعور بالاغتراب والانفصام عن المجتمع، وتعميق الهوَّة بين طبقة الحكام والمحكومين .

* **غياب معنى الحياة**: وهذا هو البعد الفلسفى لمفهوم الاغتراب، وإذا كان الدين الإسلامى قد وهب الإنسان العربى معنى عظيمًا للحياة، فإن غياب الوعى الدينى وتهميش دور الدين فى الحياة - قد أدى إلى تغريب الإنسان العربى وضياع معنى الحياة فى نظره .

* **غياب المعايير**: وهو البعد الاجتماعى لهذه الظاهرة، وفى مجتمعاتنا العربية لا توجد معايير ضابطة لما يسبغه المجتمع على أبنائه من مظاهر التكريم والتقدير، ويرجع هذا إلى سطوة الماديات وسيطرة المصالح الشخصية وتقديمها على قيم العمل والإنجاز والكفاءة . . . كل هذا يؤدى إلى فقدان الرغبة فى العمل والإنجاز، ما دام بلا جدوى .

* **غياب القيم الأخلاقية والإنسانية**: إن المجتمعات العربية ليست بحاجة إلى مثل وقيم أخلاقية، فهذه القيم موجودة بالفعل، ولكنه وجود نظرى، لا يستند إلى الواقع والممارسة، فالكل يتحدث عن القيم والأخلاق، ولكن التطبيق الفعلى لهذه القيم الأخلاقية على أرض الواقع - ليس على المستوى المطلوب، وقد طغت القيم المادية على القيم الأخلاقية والمثل الإنسانية حتى كادت تتوارى من حياتنا، مما أدى إلى نشوء أجيال من الشباب الحائرين الضائعين بين مثل أخلاقية نتحدث عنها كثيرًا، وقيم مادية نمارسها كثيرًا فى واقع حياتنا .

* **الإحساس بالغربة عن الذات**: وهذا هو البعد النفسى لظاهرة الاغتراب، وهو نتاج العوامل السابقة جميعًا، إذ يشعر الإنسان بالغربة عن ذاته بعد أن فقد كل أساس تقوم عليه علاقته بالحياة: بعد أن فقد المشاركة فى السلطة والقرار، وفقد المعنى الجوهرى لوجوده، وغابت المعايير والقيم . . .ماذا يبقى للإنسان بعد هذا كله سوى الاغتراب عن ذاته والانهيار تحت وطأة مشاعر الخوف والبؤس والقهر والاضطهاد؟

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

الاجتهاد . . ورحلة المعرفة

فى رحلة المعرفة وسعى الإنسانية المثابرة وجهادها المستمر نحوها، يأخذ اجتهاد العلماء دورًا بارزًا فى إزالة الأتربة الموجودة على العقل البشرى فى ضوء هدى القرآن الكريم وتمشيًا مع روح العلم . ومع كل جديد من اجتهاد العلماء يسعد أناس ويفزع آخرون، وبخاصة أولئك الذين وقعوا أسرى لما أَلِفُوا من معارف قديمة موروثة، ولا يستطيعون أن يتعاملوا بعقول بِكْرٍ صافية غير متأثرة بأرضية مبيتة، ولا مضغوطة بأى لون من التفكير .

ويشهد التاريخ على كثير من مواقف الرفض تجاه آراء جديدة، ثم بدا للرافضين مع الأيام أن أهل الجديد على صواب وأنهم ما تجاوزوا الحق أبدًا .

وفرقٌ بين إنكار النصوص الكريمة من آيات قرآنية أو أحاديث نبوية وبين الاختلاف مع الغرب فى فهم هذه النصوص، فالاختلاف فى فهم النص فى إطار عدم إنكار شىء مما هو معلوم من الدين بالضرورة أو الأخذ بظاهر النص أو بالتأويل المحمود، كل ذلك بعيد عن مصادرة الرأى أو إنكاره، وكما يقول ابن رجب الحنبلى: اجتمعت كلمة أهل العلم على أن المختلَف فيه لا إنكار فيه .

وحين نختلف فينبغى أن يكون ذلك فى إطار الأدب النبوى: +ليس المؤمن بطَعَّان ولا لعَّان ولا فاحش ولا بذىء؛ . وللعلم حقائق يُستدل عليها بالأدلة الصحيحة والشواهد الواضحة دون سبٍّ أو تجريح .

والمتأمل لتاريخ الأمة يرى أن اختلاف أئمة المسلمين اختلاف بأدب، وفى الفروع وليس فى الأصول، لقد كان الاختلاف عند السلف عامل بناء وليس عامل هدم؛ لأن كلاً منهم كان ينشد الصواب

أو الأفضل حتى ولو ظهر على يد غيره، وكانت آراء الأئمة ثمراتٍ متعددةً لشجرة واحدة هى شجرة الكتاب والسنة .

ومعلوم أن نشأة الاختلاف فى الأحكام الفقهية تعود إلى نشأة الاجتهاد الذى ظهر بوضوح بعد وفاة النبى ﷺ وانقطاع الوحى، وتوزع الصحابة - رضوان الله عليهم - فى الأمصار، ورجع الاختلاف فى الأحكام الشرعية إلى أصلين هما :

الأول: احتمال النصوص الشرعية لأكثر من معنى واحد .

الثانى: اختلاف المدارك والأفهام . فمشارب الناس مختلفة، وعقولهم متفاوتة؛ خذ مثلًا قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ البقرة/٢٢٨ . وقابله مع قوله تعالى فى السورة نفسها قبل هذه الآية بآيتين: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ البقرة/ ٢٦٦ . فى الآية الأولى: ثلاثة قروء . وفى الآية الأخرى: أربعة أشهر . وبمقارنة هذا مع قوله - سبحانه وتعالى - فى الأولى: ﴿قُرُوٓءٍ﴾ وفى الأخرى: ﴿أَشْهُرٍ﴾ نجد أن اللفظة الأولى ﴿قُرُوٓءٍ﴾ تحتمل أكثر من معنى واحد فى الوضع اللغوى، فمن العرب من يسمى الحيض: قرءًا، وهو مذهب أهل الحجاز، ومنهم من يسمى الطهر: قرءًا، وهو مذهب أهل العراق، ومنهم من يجمعهما جميعًا، فيسمى الطهر مع الحيض: قرءًا .

لذا تتعدد الآراء فى فهم هذه الآية الكريمة: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ فمنهم من يلزم المطلقة الحائض بثلاث حيضات، ومنهم من يلزمها بثلاثة أطهار، ومنهم من يخيرها، وتتحد الآراء فى فهم قوله تعالى: ﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ .

ولتعدد الآراء فى الآيات التى تحتمل ألفاظها أكثر من معنى - التى تسمى بالأدلة الظنية - حِكَم بليغة . ولقد أشار العلماء المحققون إلى هذه الحكم فى مجالات مختلفة؛ من ذلك قول الإمام الزركشى رحمه الله: اعلم أن الله لم ينصب على جميع الأحكام الشرعية أدلة قاطعة،

بل جعلها ظنية، قصدًا للتوسيع على المكلفين؛ لئلا ينحصروا فى مذهب واحد لقيام الدليل القاطع .

ومن الأمثلة التى تؤكد عودة نشأة الاختلاف فى الأحكام الفقهية إلى عصر الصحابة - رضوان الله عليهم - فى زمن النبى ﷺ : اختلافهم فى زمنه ﷺ فى حكم الصلاة فى الطريق إلى بنى قريظة، فقد روى البخارى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال يوم الأحزاب: +لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة؛ فأدركهم العصر فى الطريق، فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيها .وقال بعضهم: بل نصلى، لم يُرِدْ منا ذلك . فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فلم يعنّف واحدًا منهم .

فلقد أقرّ رسول الله ﷺ خلافهم فى فهم النص الواحد الذى سمعه الجميع منه، وهم أصحابه المخالطون له صباح مساء .

ومن النماذج الواضحة لما اختلف فيه الصحابة - وهى قليل بالنسبة لما اتفقوا فيه - أن أبا بكر - رضى الله عنه - كان يسوِّى بين المسلمين فيما يأخذون من بيت المال لا يفرق بين من سبق إلى الإسلام وغيره، وكان يقول: إنما أسلموا، أجورهم على الله، وإنما الدنيا بلاغ، فكان - رضى الله عنه - يعطيهم ما به يحفظون مصالحهم، الكل فى ذلك سواء، ولما آلت الخلافة إلى عمر - رضى الله عنه - فاضَلَ بينهم؛ مراعيًا سبق الإسلام وما قدموه من خدمات لهذا الدين وقال: لا أجعل من ترك داره وماله وهاجر إلى الله ورسوله كمن أسلم كرهًا . فأبو بكر يريد العدل وعمر يريد العدل، ويختلف رأيهما فيما يحقق هذه العدالة فيجىء الاختلاف فى الحكم تبعًا لاختلافهما فى الرأى .

ولقد علَّم القرآن المسلمين أن يجتهدوا وأن يستنبطوا وأن يسترشدوا بعلمائهم العاملين، يقول الله - سبحانه وتعالى - فى محكم آياته: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ

أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ النساء/ ٨٣ .

فهذه دعوة صريحة إلى الاستنباط والاجتهاد، وللمجتهد المصيب أجران، وللمخطئ أجر واحد؛ لقول النبى ﷺ : «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» .

ولما أراد النبى ﷺ أن يبعث معاذًا إلى اليمن قال: «كيف تقضى إذا عرض لك قضاء» . قال: أقضى بكتاب الله . قال: «فإن لم تجد» قال: فبسنة رسول الله ﷺ . قال: «فإن لم تجد فى سنة رسول الله ﷺ، ولا فى كتاب الله؟» فقال: أجتهد رأيى ولا آلو . فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: «الحمد لله الذى وفّق رسول رسول الله لما يُرضى رسول الله» .

والله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الأحزاب/ ٥ .

والاجتهاد ضرورة فيما لم يَرِدْ فيه نص قطعى، والأحكام الشرعية التى وردت نصوصها فى الكتاب والسنة معدودة، وقد ذكر أحد العلماء أن عدد الآيات الخاصة بأصول الأحكام فى القرآن لا تزيد على خمسمائة آية، وعدد الأحاديث التى هى أصول الأحكام خمسمائة حديث، لذا كان لا بد من الاجتهاد؛ يقول الشاطبى: إن الوقائع فى الوجود لا تنحصر، فلا يصح دخولها تحت الأدلة المنحصرة، ولذلك احتيج إلى فتح باب الاجتهاد من القياس وغيره . فلا بد من حدوث وقائع لا يكون منصوصًا على حكمها ولا يوجد للأولين فيها اجتهاد .

لكن من الذى يجتهد أو يرد رأيًا أو يدفع ردًّا؟

لقد وضع الأصوليون شروطًا لذلك ليس هذا مجال بسطها .

فلا بد لأحبة الإيمان أن يدركوا أنه لا يجوز الخوض فى الأحكام الشرعية قبل التزود بالأدوات التى تؤهل لذلك كإتقان اللغة العربية، ومعرفة علوم الكتاب والسنة، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، وما إلى ذلك من أدوات تؤهل الإنسان للفتوى، وقد حذَّر النبى ﷺ من القول فى القرآن بغير علم فقال: «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده فى النار» . وقال أيضًا : «من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض» .

ولا يخفى على عاقل ضرر فتوى الجاهلين، وكما لا يأمن الإنسان على ولده إذا مرض إلا الطبيب الفاهم المتخصص، فإنه ينبغى عليه ألاَّ يأمن على أمر دينه إلا العالم الفاهم المتخصص، أو الذى أجازه أهل الذكر، وحسبنا هذه الحادثة التى وقعت فى حياة النبى ﷺ ، والتى تبين لنا إلى أى حد يكون الأثر السيئ للفتوى حين تكون على غير علم؛ ففى حياة النبى ﷺ أصيب أحد الصحابة بجرح، وكان عليه جنابة ولا بد أن يغتسل ويتطهر، فأفتاه بعض من معه بأن ينزل الماء ويغتسل مع هذه الجراحة؛ فكانت النتيجة أن الرجل مات من أثر ذلك، فلما بلغ النبى ﷺ خبر الحادثة قال فى شأن هؤلاء الذين أفتوه: « قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العِىِّ السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم » .

والحق أن الاختلاف بين العلماء لون من الاجتهاد للوصول إلى الأفضل، لكن الطامة الكبرى فى شهوة الإفتاء عند غير المؤهلين للفتوى، هؤلاء مخربون مضلون .

ولقد أكد العلماء أن وحدة المسلمين من أهم الفرائض وأفضل القربات إلى الله - عز وجل - وليس من العقل أن ينتظر المسلم من

إخوانه على اختلاف مشاربهم وعقولهم وظروفهم تحقيق الصورة المثلى للإسلام، كيف ذلك وقد شرع الله للناس تأدية العبادات فى كثير من الأمور على درجات من التنوع بين الأفضل والاختيار والجواز، وكلها درجات يرجى لها القبول عند الله تعالى، لكنها تتفاوت فى المراتب؟!

وعندما يصاب أهل الحق بالجهل، سوف يضيع الحق، لا بجهد الأعداء فحسب، بل - وبدرجة كبيرة - نتيجة الجهل والحماقة، وعلى نفسها جنت براقش، وصدق قول الشاعر:

لا يَبْلُغُ الأعداءُ من جاهلٍ   ما يبلغُ الجاهلُ من نَفسِهِ

وحين يتخذ الناس رءوسًا جهالًا فستزداد هوة الفرقة والاختلاف المذموم .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

التاريخ يصنعه الأقوياء

المتأمل للتاريخ الإنسانى يجد أن أعظم الأحداث وأكبر التحولات التى جرت فيه كانت من صنع أناس أقوياء، من مينا إلى رمسيس إلى الإسكندر إلى خالد بن الوليد إلى صلاح الدين الأيوبى، وغيرهم من القادة العظماء . هؤلاء الأقوياء هم الذين دفعوا حركة التاريخ واستطاعوا أن يؤثروا فى حياة البشرية .

والقوة التى تسلح بها هؤلاء ليست مادية فقط؛ بل إن للقوة أسبابًا وصورًا كثيرة، وأول أسباب القوة: العلم، ولولا العلم لما صنعت الأسلحة ولا وضعت الخطط العسكرية، ولا بنيت القدرة الاقتصادية التى تمكِّن من المواجهة .

ثم الثروة، فإن المال هو المحرِّك للمشروعات الكبرى، والمصدر الأساسى للثروة هو العلم، حيث تتكاتف الجهود لاستخراج ما أودعه الله فى الدنيا من الخيرات، والاستفادة منها . والمال إذا وضع فى موضعه ووظِّف توظيفًا صحيحًا كان سببًا من أسباب قوة المجتمع ورفعة الأمة، وإذا وظِّف توظيفًا سيئًا كان سببًا من أسباب التدهور والسقوط .

والاتحاد من أعظم أسباب القوة، فالجهود الفردية لا تصنع حضارة ولا تبنى أمة، وإنما يصنعها الجهد الجماعى المنظم فى وحدة واحدة، وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى قيمة الاتحاد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران/ ١٠٣ . وتكرر الحذير من التشتت والتفرق والتنازع، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الأنفال/ ٤٦ . أى: تضعفوا وتذهب قوتكم بسبب تنازعكم .

وقد ضرب النبى ﷺ مثلًا بالغ الروعة والإيحاء للمجتمع المسلم المترابط المتحد، فقال ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه

بعضًا »، فالمجتمع بناء، وكل فرد بمثابة لَبِنَة فى هذا البناء، وتماسك اللبنات هو الذى يقيم البناء ويعطيه قوته وصلابته .

ومن أسباب القوة: حسن التقدير والتخطيط واختيار اللحظة المناسبة والمكان المناسب، ليكون للفعل تأثيره وقوته، فلكل فعل زمانه ومكانه المناسبان له، وقد يكون الفعل فى ذاته صوابًا لكنه جاء فى وقت غير مناسب أو فى مكان غير مناسب فتنقلب الآية وتكون النتيجة عكسية .

ومن أهم أسباب القوة أيضًا: الثبات وعدم الانهيار أمام الشدائد والأزمات، وقد علَّمنا النبى ﷺ ذلك بالفعل والقول، بالفعل: فى وقفته الشجاعة فى عزوة أحد وقد فرَّ الفرسان من حوله فكان أقرب الناس إلى العدو حتى أصيب وكسرت سنُّه وهشمت خوذته ﷺ . وبالقول: فى حديثه الشريف: «ليس الشديد بالصُّرَعة، وإنما الذى يملك نفسه عند الغضب» .

فالسيطرة على المشاعر والانفعالات لون من القوة المعنوية يفوق فى تأثيره القوةَ المادية المحسوسة .

إننا فى زمن القوة، حيث لا مكان للضعفاء، بل يمكننا القول إن الضعيف فى كل زمان ومكان لا موقع له إلا على موائد التبعية، لا يملك أمر نفسه .

ومهما تكن قوة الفكر الذى تؤمن به وتنتمى إليه، فلا بد من قوة أخرى تمكِّن لهذا الفكر . وقد جمع الله - عز وجل - كل أسباب القوة فى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الأنفال/ ٦٠ . أى: كل ما تملكون من أسباب القوة والغلبة .

وقد حث النبى ﷺ على امتلاك القوة، فقال: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

المرأة بين الشرع والتقاليد

الإنسانية تطير بجناحيها: الرجل والمرأة معًا، وانكسار أحد الجناحين يعنى التوقف والهبوط .

لكن مصاب الإسلام فى بعض المتحدثين عنه حيث جعلوا أنفسهم أوصياء على المرأة، لا بشرع الله وإنما بعاداتهم وتقاليدهم الراكدة؛ حيث ظلت عقولهم غارقة فى المرأة وما تثيره الغرائز نحوها، غافلين عن مناحى التكريم العقلية والفكرية والأمومة التى أكرم الله المرأة بها ولم يَحْظَ بها رجلٌ قط .

ورؤية أمثال هؤلاء تحتاج إلى تصحيح لكثير من المفاهيم التى فُسِّرت فيها النصوص وأوِّلت بأسلوب وطريقة سلبية لصالح أهوائهم . ومن أخطر هذه المفاهيم: مفهوم القوامة الذى يُساء استخدامه فى معانى القهر والسيطرة والهيمنة، والقوامة لا تعنى أبدًا فى دين الله القهر، وإنما هى مسئولية منوط بها تبعات وواجبات، وإلا فالأمر شورى بينهم، والنساء شقائق الرجال، وحسبنا أن القرآن عبر عن العلاقة بين الزوج والزوجة بكلمات تعنى الامتزاج الكامل فى كيان واحد، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ البقرة/ ١٨٧ .

وأقام الله - سبحانه وتعالى - العلاقة بين الرجل والمرأة على المودة والمحبة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم/ ٢١ .

كذلك ذهاب المرأة إلى المسجد، ما زلنا نسمع أصداء لبعض الأصوات التى تريد أن تحبس النساء فى البيوت بلا علم ولا فقه ولا إسهام فى بناء المجتمع المسلم . وأين نحن من هدى المصطفى ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » كذلك شأن صوت المرأة حين يذهب بعضهم إلى أنه عورة على الإطلاق، دون تمييز بين الصوت الذى يثير الفتنه وبين الصوت الجاد الذى يرشد ويعلم .

أيضًا لباس المرأة مسألة طال فيها الجدل واحتدم فيها الخلاف على نحو مبالغ فيه، نقبل فيه من نصوص القرآن والسنة ما وافق أهواءنا وعاداتنا، أما النصوص التى تخالف أهواءنا فنُجهز عليها بالتأويل، وكأن كل قيمة المرأة فى الإسلام قد وُضِعت داخل ثيابها!! هل يعقل أن يكتسب الإنسان قيمته من ثوبه وملبسه؟ أم من فكره وصلاحه؟

ينبغى أن نفرق بين التجمل والتبرج، وبين إباحة الدين والشرع الحنيف وما فرضته تقاليدنا الراكدة التى جعلت كل شىء فى المرأة حتى ولو كان مباحًا لها عورة .

وعلى هذا المنوال يمكن أن تناقش قضايا ضرب الزوجات، والتلاعب بالطلاق، وسفر المرأة، وحرية اختيار الزوج، والعمل . وكأننا تائهون عن المقاصد الشرعية الغراء فى حسن تربية وتعليم المرأة، وبنائها بناءً إيمانيًا، وخير أسوة وقدوة فى هذا أمهات المؤمنين، فهذه أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - كانت مضربًا للمثل فى العلم والعقل، وهذه نسيبة بنت كعب صحابية محاربة مجاهدة . . .إلخ .

إن واقعنا فى التعامل مع المرأة يعانى خللًا وتشوبه عِلَلٌ يُنكرها الإسلام، وهو أمر يحتاج منا إلى مراجعة؛ لأنه من العار علينا أن يكون وفاؤنا للعادات والتقاليد مقدمًا فى واقع الفعل على وفائنا لشرع الله عز وجل .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

فقه الواقع ومراتب الأعمال

المتأمل لواقعنا المعاصر يرى كثيرًا من المتناقضات فى العمل فى ساحة العمل الإسلامى، فكثير من الأثرياء يؤمنون ببناء الحوائط والجدران ولا يقبلون بالنفقة على بناء العقول ودعم الوعى السديد بدين الله تعالى، والكثرة الكثيرة تنفق الصدقات فى صناديق النذور بمساجد الأولياء ولا تنفق دعمًا للبحث العلمى وصناعة المعرفة، والوسائل التى تمكن للعلم والمعرفة ونشر القيم والفضائل ولو كان باستخدام (الدراما) الهادفة لأن لها فعل السحر فى نفس الكبير والصغير على السواء

وكثير من الناس يحجون العام بعد العام ويعتمرون كذلك كل عام، ولا ينفقون هذه الأموال لسد حاجات الفقراء والمرضى أو علاج بطالة الشباب أو دعم طلبة العلم والباحثين الفقراء .

إن من المحزن ومن المؤلم أن تظل النفقة والجهود فى ساحة العمل الإسلامى - إلا فى القليل النادر - فى إطار الإيواء وإطعام الجائع وكسوة العارى، وكأنه لا بد من جائحة من السماء تعرض الفرد أو المجتمع للهلاك لكى يتحرك الأثرياء بأموالهم للمساعدة .

وأود أن أشير إلى أننا نشترك فى هذا الجزء مع الأعداء، حين يدمرون ويهلكون الحرث والنسل، ثم تأتى طائراتهم تحت مرأى وسائل الإعلام وهى تحمل فئات الموائد مساعدة للاجئين والمنكوبين تحت شعار الرحمة والإنسانية .

إن فقه الواقع يتطلب من المسلمين صحوة فى الوعى كى لا تقتصر صدقاتهم على المساكين والمنكوبين، وإنما نحتاج النفقة التى تبنى عقل الأمة .

خلال زياراتى الدعوية والعلمية لأمريكا، زرت جامعة سان فورد،

وعلمت أن ميزانية هذا الصرح العلمى الذى يمثل مدينة علمية متكاملة يصل إلى ما يقارب ميزانية مصر، وأن الصرح الضخم البارع فى العلم يقوم على أموال الإهداءات والتبرعات من اليهود .

هؤلاء قوم عرفوا الطريق فكان لهم المجد والهيمنة والسيطرة؛ إننا فى دنيا الأسباب، من أحسنها وأتقنها أعطته، ومن كان نائمًا غارقًا فى الأحلام فأنَّى له أن يبلغ المراد؟!

كذلك نرى اليهود - من خلال توظيفهم للدراما - قد نجحوا فى تشويه صورة العرب والمسلمين على مستوى العالم، واستطاعوا أن يكسبوا عطف العالم ودعمه لهم، أعانهم على ذلك سلبية المسلمين وتصرفنا بمنطق العزلة .

كذلك نرى بعض الناس يشتغل بسنة ويضيع فريضة .

كل هذه الصور هى ألوان من الخلل دفع إليها سوء الفهم وقلة الوعى بمراتب الأعمال وفقه الواقع، والجهل بهذا الفقه يجعل الإنسان يقدم ما حقه التأخير ويؤخر ما حقه التقديم؛ فالأعمال عند الله تعالى ليست كلها فى منزلة واحدة، وفى هذا يقول النبى ﷺ فيما أخرجه البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» .

ومعلوم فى سنة الهادى البشير سيدنا محمد ﷺ أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، وكان الصحابة - رضى الله عنهم - حريصين على فقه مراتب الأعمال، فكانوا يسألون النبى ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله - عز وجل - وعن أفضل الأعمال عند الله عز وجل .

ويقوم فقه الواقع على الموازنة بين المنافع بعضها وبعض وتقديم الأهم فالمهم . من ذلك قوله تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ

ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ التوبة/ ١٩-٢٠ .

كذلك يقوم على الموازنة بين المفاسد بعضها وبعض، حيث يراعى إزالة الضرر بأخف الضررين وأهون الأمرين .

كما يقوم على الموازنة بين المصالح والمفاسد، فإن كانت المفسدة هى الغالبة على الشىء مُنِع، كما فى قوله تعالى: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ البقرة/ ٢١٩ .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

قيم حضارية فى حياة رسول الله ﷺ

الحضارة فى عموم معناها تعنى: مجموع الجهد الإنسانى المؤدى إلى الرقى والتقدم فى شتى مجالات الحياة المادية والمعنوية . وتبدأ الحضارة حيث ينتهى القلق والاضطراب، وتقوم الحضارة على أسس ثابتة أهمها: العلم والنظام والأخلاق والحرية . وتنطلق الحضارة من الإنسان؛ فالإنسان هو صانع الحضارة .

الإنسان والقيم:

والنبى ﷺ صاحب أعظم إنجاز حضارى متجدد على مر الزمان، وهذا الإنجاز يتمثل فى بناء الإنسان بناءً إيمانيًّا يتم من خلاله أعظم عملية إنقاذ للإنسان من كل مظاهر الضلال والفساد التى تسيطر عليه، وبتخليص الإنسان من الأوصاف الذميمة والاضطراب والقلق، واكتسابه لأوصاف الخير والفلاح يتأهل الإنسان لصنع الحضارة .

ويسجل القرآن الكريم هذه الحقيقة الغالية لرسول الله ﷺ حين يذكرنا بأن رسول الله ﷺ من أكبر نعم الله تعالى علينا، ومن ثمرة هذه النعمة هذا التحول العظيم للإنسان من كل أوصاف الضلال إلى أوصاف الإيمان والخير والهداية . .

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ آل عمران/ ١٦٤ .

وبناء الإنسان على يد رسول الله ﷺ لم يغفل جانبًا من جوانبه، بل اشتمل البناء على رعاية عقل الإنسان وفكره، وقلبه ومشاعره، وجسده وحاجاته .

فأما بناء الإنسان من ناحية عقله فكان بتحريره من التقليد الأعمى

والتبعية على غير هدى أو بينة . يشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فى قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ البقرة/ ١٧٠ .

ويربّى النبى ﷺ فى الإنسان القوة العاقلة التى تحسن الاختيار فى مجال الخير، الأفضل والأحسن والأرقى، وبهذا تتقدم الحياة وترقى . وإلى هذه الحقيقة يشير قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الزمر/ ١٨ .

كما يربّى النبى ﷺ فى عقل الإنسان قوة البحث والمنهجية العلمية التى تربط بين الأسباب والنتائج وتفسر الظواهر الكونية تفسيرًا علميًّا، ليجد الإنسان فى عظمة صنع الله وحكيم تدبيره دليلًا على عظمة الخالق فيزداد الإيمان من جانب، ومن جانب آخر يصل الإنسان إلى سر الانتفاع بهذه المخلوقات التى سخرها الله لنا، والآيات التى تدعو الإنسان إلى التأمل والبحث كثيرة، من ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ آل عمران/ ١٩٠ .

وأما بشأن الجانب الأخلاقى فى البناء الحضارى للإنسان على يد رسول الله ﷺ فكان بانتشال الشخصية العربية خاصة، والمجتمع الإنسانى عامة من روح القبلية والعصبية التى كانت سائدة فى مجتمع الجاهلية من: وأد البنات، والعدوان على الغير، وممارسة الرذيلة التى تعارف المجتمع عليها آنذاك، من بيع الجوارى للمتعة الرخيصة وإدمان المسكرات وغير ذلك .

كانت الأخلاق منحدرة فى إسفاف عجيب ضرب به المثل فى فساد الضمائر والذمم، وجاء رسول الله ﷺ مداويًا وبلسمًا هاديًا لتتحول على

يديه وبهديه المبارك كل مظاهر الفساد إلى الفضائل والمكارم .

وتحولت الأخلاق على يد رسول الله ﷺ من منطق العادة إلى العبادة . وارتبطت الأخلاق فى المنهج المحمدى بالإيمان، فالإيمان القوى يلد أخلاقًا كريمة، وأصبحت الأخلاق من أفضل القربات لله تعالى؛ فالمؤمن يبلغ من المنازل والدرجات عند الله تعالى بحسن الخلق ما لا يبلغه بصوم أو صدقة، بل وربط النبى ﷺ بين العبادات والأخلاق فجعل للعبادات أثرًا فى حسن الخلق؛ فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصدقة تطهر وتزكى صاحبها .

ووسع النبى ﷺ دائرة الخلق فهى تشمل: أخلاق العبد مع ربه، وأخلاق العبد مع نفسه، وأخلاق العبد مع الآخرين من الناس على اختلاف أجناسهم ودينهم، وأخلاق العبد مع من حوله من مخلوقات تشاركنا بيئة الحياة، وتمت منظومة الأخلاق على يد رسول الله ﷺ واكتملت مكارمها، قال ﷺ : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

وهكذا ينتقل رسول الله ﷺ بالبشرية خطوات فسيحات إلى عالم أفضل يعيش على الصدق ولا يعرف الكذب، تحيا فيه الأمانة وتُجَرَّم الخيانة، يعيش أفراده على التراحم والتواضع ولا يتعاملون بحسد ولا حقد ولا غيبة ولا نميمة، لقد أمروا أن يقولوا للناس حسنًا .

والعظيم المدهش فى البناء الأخلاقى للإنسان على يد رسول الله ﷺ هو أسلوب الوصول إليه، أسلوب تحقيقه فى أرض الواقع!! فلم يُكْرِه النبى ﷺ أحدًا من الناس على الفضيلة، وإنما كان ذلك بحسن التربية وحكيم المعالجة مع تقديم الأسوة والقدوة من نفسه ﷺ لكل خلق يدعو إليه .

وهكذا يُعلِّم النبى ﷺ المصلحين درسًا عظيمًا فى الإصلاح والتغيير،

وهو أن الإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل، كما أن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن . لقد علَّم النبى ﷺ المصلحين أن يجتهدوا فى إزالة أسباب الانحراف، وأن يعملوا على معالجة النفس من الهوى، ثم يأتى فى النهاية دور الحدود على الجرائم الخلقية لحماية الشرفاء والصالحين ممن استعصوا على كل محاولات الإصلاح وأصروا على الفساد .

وأما بشأن بناء الجانب النفسى للإنسان بناءً قيميًّا على يد رسول الله ﷺ فقد تم من خلال هديه ﷺ فى تربية الإنسان على التصالح والعلاقات الودودة مع الآخرين، فالتعامل يتم على أساس حسن الظن بدلًا من الوساوس والشكوك والأوهام التى تعذب الإنسان وتدفعه إلى القطيعة أو الانعزال أو الإساءة للغير .

وخلَّص الهَدْىُ المحمدىُّ الإنسانَ من كل ألوان العقد النفسية الناتجة عن ألوان الحرمان المختلفة، ففى الله عوض عن كل مفقود .

أيضًا ربى النبى ﷺ الإنسان المؤمن على الاعتدال بعيدًا عن الإفراط أو التفريط، بعيدًا عن المغالاة والعصبية .

وبذلك حول النبى ﷺ الشخصية الهائجة القلقة المضطربة إلى شخصية تتسم بالاستقرار والهدوء النفسى، وذلك على نحو ما يظهر فى هديه ﷺ فى علاج حالات الغضب والانفعال حيث جعل النبى ﷺ موازين القوة مرتبطة بالقدرة على السيطرة على المشاعر والرغبات والنزوات، قال ﷺ : «ليس الشديد بالصُّرَعة، ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» .

كذلك تحول الإنسان بهديه ﷺ من التشاؤم إلى التفاؤل حيث نهاهم ﷺ عن التطير وكل ما فى حكم التطير وأبدلهم مكان التطير الاستخارة والاستشارة، قال ﷺ : «لا طيرة»، وكان ﷺ يعجبه الفأل الحسن .

وفى هذا تأسيس لمنهج علمى إيمانى فى التعامل مع المستقبل باستطلاع الحقائق من أهلها والاستعانة بالله تعالى .

أيضًا دعا رسول الله ﷺ إلى التفاؤل، ونهى عن التشاؤم، ليعلم كل المصلحين كيف يتغلبون على الآثار النفسية التى ترتبت على المواقف الحرجة والأزمات القاسية وتأمل قوله ﷺ : « أحد جبل يحبنا ونحبه » ليزيل ما تبقى من مشاعر وآثار نفسية عند البعض بسبب الهزيمة عند جبل أحد .

وفى هذا السياق ينهانا ﷺ عن سب الأيام والأزمان لينتزع من نفس الإنسان التشاؤم من يوم محدد أو مكان معين، فلا تأثير للزمان بذاته ولا للمكان بنفسه، وإنما يؤثر فيهما قضاء الله وقدره، قال ﷺ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » أى أن الله تعالى هو المؤثر بقدرته فى الزمان والمكان .

وبكل الإجلال يقف الإنسان مندهشًا أمام عظمة الهدى المحمدى فى البناء النفسى للإنسان حين يدعم قوته النفسية لتكون قادرة على مواجهة الأزمات فلا تنهار أمام خسارة فادحة أو فقد محبوب أو نحو ذلك، أو تجلس حبيسة عند مرارة الحدث بأسى وحزن يفقد الإنسان عقله وصوابه، فمن هديه ﷺ فى الأزمات والمحن التحلى بالصبر والرجوع إلى الله فعنده العوض عن كل مفقود، وعدم الوقوع فى حبائل الشيطان فلا تقل: لو كان كذا لكان كذا، ولكن توجه إلى الله تعالى، وقل: قدر الله وما شاء فعل .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

ليس مصادفة

هذا العالم الذى نحيا فى أرجائه بكل ما فيه من موجودات وما يتعلق بها من أحداثٍ كونية، وما يحدث للإنسان فيه من رفعةٍ وسقوطٍ وسعادةٍ وشقاءٍ وقوةٍ وضعفٍ ونحو ذلك، كل ذلك لا يقع مصادفة ولا بضربة حظ، ولا خبط عشواء، وإنما وفق سنن إلهية جارية فى كون الله لا تتخلف ولا تتعطل، كما فى الآيات التالية:

* ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ القمر/٤٩ .

* ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ الرعد/٨: ٩ .

* ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ يس/ ٣٨ .

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ الحج/ ٥ .

وأودعَ الله فى الإنسان سُبل تعرف هذا القانون والانتفاع به ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ النحل/ ٧٨ .

وسنن الله الجارية فى كونه فى الأفراد والجماعات لا تتبدل ولا تتغير، قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فاطر/ ٤٣ .

وجعل الله التأمل فى جريان هذه السنن مادة للعظة والاعتبار، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ آل عمران/ ١٣٧ : ١٣٨ .

وأخبر القرآن الكريم أن كل شىء بسبب؛ ومن هنا اقتضت حكمة الله - سبحانه وتعالى - ربط المسببات بأسبابها . وبيَّن القرآن أسباب هلاكِ الأمم ورفعتها، وأسباب سعادة الفرد وشقائه، من ذلك قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ الليل/ ٥-١٠ .

فإن لله سنة فى الهداية وسنة فى الإضلال، فمن استجاب لله فقد اهتدى، ومن اتبع هدى الله فلا يضل ولا يشقى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ النحل/ ٩٧ .

فى مقابل الشقاء فى الدنيا والخسران فى الآخرة لمن يعرض عن ذكر الله فقد أخبر القرآن الكريم عنه فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ طه / ١٢٤ .

ولله سنة فى النصر وسنة فى الهزيمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ الصافات/ ١٧٣ : ١٧١ .

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم/ ٤٧ .

فمن أخذ بأسباب النصر نصره الله، فينبغى أن نكون مؤهلين للنصر عملًا بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ

وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الأنفال/ ٦٠ .

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الأنفال/ ٤٥:٤٦ .

ومن ترك أسباب النصر نالته الهزيمة .

ولله سنة فى الابتلاء، فالصبر والرضا باب النجاة، والجزع وعدم الرضا باب الخسران .

ولله سنة فى الظلم والظالمين، فالله سبحانه وتعالى بيَّن أنه: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الأنعام/ ٢١ . وأنَّ الظلم من أقوى أسباب هلاك الأمم وانهيار الحضارات، من ذلك الآيات الكريمة:

* ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ طه/ ١١١ .

* ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ النمل/ ٥٢ .

* ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ البقرة/ ٢٧٠ .

فى مقابل أنَّ الله - عز وجل - ضمن الأمن لمن تنزه عن الظلم أفرادًا وجماعات، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الأنعام/ ٨٢ .

ولله سنة في الاختلاف، ولله سنة فى الترف والمترفين، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ الإسراء/ ١٦ .

فالترف مؤذن بانهيار الحضارات .

ولله سنة فى النعم، ولله سنة فى الذنوب والسيئات، ولله سنة فى

الاستدراج، ولله سنة فى المكر والماكرين، ولله سنة فى الخلق وفى الرزق .

وهكذا سنن الله شاملة وسارية ونافذة، وليس الأمر مصادفة ولا ضربة حظ عشوائية، ولكن من أراد شيئًا فينبغى أن يُؤهل نفسه له بإتقان أسبابه، إن الله لا يُضيع أجر من أحسنَ عملًا .

وما يعقلها إلَّا العالمون

من آفاق التفكير العلمى
فى القرآن والسنة

العلم يقوم على الحقائق، ويصل الإنسان إلى الحقائق حين يتمكن من أدوات المعرفة والبحث العلمى، وحين يكدُّ عقله فى قوة الملاحظة ودقة المشاهدة، وعمق التفكير، ودوام التدبر والتأمل .

والمتدبر لآيات القرآن الكريم يظهر له بوضوح أنها أسست للتفكير العلمى، وحثت عليه، وكذلك السنة النبوية المطهرة . ولنا أن نتأمل المحاور القرآنية التالية التى يظهر فيها أسس التفكير العلمى .

*** القرآن يعرض الحقائق بأسلوب علمى واضح:**

فكثير من آيات القرآن جاءت فى صورة مقدمات تؤدى إلى نتائج، من ذلك قوله تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ النحل/ ٩٧ .

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ الطلاق/ ٢ .

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ الطلاق/ ٣ .

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ التغابن/ ١١ .

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ النساء/١٢٣ .

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ⑦﴾ الزلزلة/ ٧ .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ⑩﴾ الشمس/ ٩-١٠ .....إلخ .

*** محاربة القرآن للتقليد الأعمى:**

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ⑰⓪﴾ البقرة/ ١٧٠ .

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ البقرة/ ١٦٦ .

*** الواقعية والموضوعية:**

فالإسلام دين الفطرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الروم/ ٣٠ . وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ البقرة/ ٢٨٦ .

*** اعتماد القرآن على أسلوب الحجة المنطقية والإقناع العقلى حتى فى أعظم ما فى الوجود، وهو الذات الإلهية:**

وذلك فى مثل قوله تعالى:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ الأعراف/ ٥٩ .

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ لقمان/ ١١ .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ الروم/ ٤٠ .

*** الآيات التى تعدد مظاهر القدرة الإلهية لتكون دافعًا للإيمان بالله، مثل:**

﴿دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ فاطر/ ٣ .

﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ النمل/ ٦٠ .

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ الملك/ ٢١ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ الفرقان/ ٤٥ .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ القصص/ ٧١ .

*** تزكية القرآن للعقل:**

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ العنكبوت/ ٤٣ .

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ البقرة/ ٤٤ .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الرعد/ ١٩ .

*** حث القرآن على التفكير والتأمل والتدبر:**

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ الرعد/ ٣، ٤ .

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ آل عمران/ ١٩١ .

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ النساء/ ٨٢ .

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ محمد/ ٢٤ .

*** يثير القرآن فى النفس روح التأمل والملاحظة العلمية لقراءة مظاهر القدرة فى كون الله المفتوح:**

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ العنكبوت/ ٢٠ .

﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ الملك/ ٤ .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ النحل/٤٨ .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ الرعد/٤١ .

*** القرآن يلفت انتباه الإنسان إلى أدوات الحس والبحث والإدراك؛ السمع والبصر والفؤاد:**

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء/٣٦ .

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ الحج/٤٦ .

*** القرآن يحارب الخرافة ويستبدلها بالعلم:**

وذلك حين أراد الله - عز وجل - أن يظهر تأييده بالمعجزات لسيدنا سليمان - عليه السلام - فكانت الغلبة لمن عنده علم من الكتاب، قال تعالى:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ النمل/٣٩- ٤٠ .

*** القرآن يحارب العشوائية:**

- ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ القمر/٤٩ .

- ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ الطلاق/٣ .

- تقدير النبى ﷺ لعدد المشركين فى غزوة بدر من سؤال الغلام: كم ينحرون فى اليوم؟

* النبى ﷺ وأسلوب الحوار والمناقشة فى تحديد موقع القوة ببدر، ورأى خباب بن الأرت، حين سأل: أهو الوحى أم هو الرأى والمشورة؟! فقال النبى ﷺ : «بل هو الرأى والمشورة» فأشار خباب على المسلمين بالنزول قريبًا من الماء، وكان هذا أحد أسباب النصر للمسلمين .

* النبى ﷺ يعتمد على أسلوب التخطيط بدلًا من العشوائية والتهور والاندفاع فى الهجرة الشريفة: إعداد الزاد، الراحلة، تغيير الاتجاه، اصطحاب الدليل، ومن يمحو الأثر، الاختباء بالغار . . . إلخ .

فالنبى ﷺ يحارب العشوائية .

- النبى ﷺ يحث على الأخذ بالأسباب وإتقانها، كما فى قوله ﷺ: «اعقلها وتوكل»، وقوله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه» .

- دعوة النبى ﷺ إلى النظام: والناظر إلى العبادات يظهر له بوضوح توزيع أعمال العبادة على اليوم والليلة فى أوقات محددة، وأن لكل عبادة أقوالًا محددة وأفعالًا معلومة، والعبادات الجماعية كالصلاة والحج لها مظهر منظم ظاهر للعيان .

*** إشكالية العقل العربى المعاصر:**

المتأمل للواقع المر للعقل المعاصر يرى أن الخلل قد استشرى فيه، ومن أخطر ما يعانيه العقل العربى المعاصر هذه الإشكاليات:

(١) يرتد إلى الوراء ولا يستشرف المستقبل .

(٢) الاستغراق فى الغيبيات وإهمال الواقع الذى بين يديه والذى هو مكلف به .

(٣) تفسير القيم والأخلاق الإسلامية تفسيرًا سلبيًا يدعو إلى الكسل والخمول والتراخى عن العلم والعمل، والتخلى عن المسئولية، وتحميل

الأقدار مسئولية كل السلبيات التى هى فيه .

(٤) تفسير الدين بمنطق العاهات المزمنة .

(٥) العلاقة بين قوى التجديد وقوى التقليد علاقة أقرب إلى التضاد، مما جعلها أقرب إلى الركود وأبعد عن التقدم .

(٦) جهودنا الفكرية فردية لا تحسن العمل بروح الفريق حتى أصبحت الدولة ضد المجتمع والمجتمع ضد الدولة؛ مما أضعف الأنا العربية والإسلامية .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

ميلاد حضارة

من أكبر مظاهر الحب الإلهى للإنسان إرسال الرسل وإنزال الكتب، وقد تجلت فى النبى الكريم سيدنا محمد ﷺ قمة هذا الحب الإلهى، حيث جعله الله رحمة للعالمين، ومن الآيات القرآنية التى تلفت الانتباه إلى أثر الهداية العظمى ببعثة رسول الله ﷺ، قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ آل عمران/ ١٦٤ .

وتشير الآية - من بين ما تشير - إلى الوسائل التى حول بها النبى ﷺ المجتمع الذى بعث فيه وأرسل إليه، والإنسان العاقل يقف منبهرًا أمام عظمة هذا التغيير الذى حوَّل المجتمع الجاهلى الذى ضربت فيه البداوة بجذورها إلى مجتمع حضارى ساد الدنيا كلها، وكانت له المقدمة بين الأمم .

وبهذه الوسائل التى أنعم الله بها على هذا النبى وأمته أحدث النبى ﷺ أعظم إنجاز حضارى ليس لهذه الأمة فقط، ولكن للبشرية كلها، حيث كانت الفتوح التى خلصت الناس من ظلم الاستعمار وطغيانه، وتحدد الآية وسائل صنع حضارة خير أمة وهى آيات القرآن والسنة المطهرة التى سماها الله فى الآية « حكمة » .

وأنت معى - أخى المؤمن - ترى وسائل الإنجاز الحضارى فى القرآن والسنة متوفرة بين المسلمين، فمثلا المصاحف على مستوى العالم مكتوبة ومسموعة، وكتب السنة كذلك، ومئات الآلاف من الدراسات حول القرآن والسنة تملأ رفوف المكتبات .

والسؤال الذى يطرح نفسه: ما الذى غاب عن منظومة الحضارة؟ لماذا تخلفنا وتقدم غيرنا؟

وبقدر يسير من التأمل يظهر لك أن الذى غاب عن منظومة الحضارة هو الإنسان القرآنى . فحياتهم (كانت قرآنًا يمشى على الأرض، والذى يبقى هو: أن نعمل بالقرآن وبالسنة، والحلقة المفقودة هى تحويل القرآن إلى واقع نعيشه، فإن الله تبارك وتعالى قضت سنته فى الكون أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

نداء العقل

من صور الوعى المنقوص لدى البعض منا أنه بالعلم الدينى وحده دون العلم الدنيوى يمكن تحقيق نهضة الأمة ورقيها، يضاف إلى هذا غلبة الارتجالية والذاتية والانفعالية والعاطفية والتبريرية والتحكمية على كثير من تصرفاتنا فى حياتنا العملية: فى تقويم الأمور، أو فى تفسير الأحداث والتاريخ، أو فى تحديد المواقف واتخاذ القرارات .

وعلاج هذا الخلل يتأَتَّى بتنمية التفكير العلمى وسيادة الروح العلمية، وأعنى بالتفكير العلمى والروح العلمية: ظهور وتكشُّف حقائق الأشياء، سواء أكانت هذه الأشياء حقائق أو موجودات أو كائنات فى الكون، أو أحداثًا فى الحياة، أو نظرًا إلى الخصوم والأنصار، أم كانت غيبًا لا ندركه، وللتفكير العلمى ملامح أهمها:

* النظرة الموضوعية إلى المواقف والأشياء والأقوال دون تأثر بأصحابها، ورحم الله الإمام عليًا حين قال: لا يُعرف الحق بالرجال، وإنما يُعرف الرجال بالحق .

* إن كثيرًا من الطلبات والمسائل يُوافَق عليها إجلالًا واحترامًا لقدر من حملوها إلى هذا المسئول وليس لأنها تستحق أو لا تستحق، وهذا ضد التفكير العلمى، كذلك كثير من تقديرنا للأمور يقوم على الهوى أو اتباع الظن .

* إسناد كل أمر إلى أهله، فللدين أهله، وللسياسة أهلها، وللعسكرية أهلها، وللطب أهله . . .وهكذا، وبخاصة أننا فى عصر يحترم التخصصات، وهذه قيمة أكدها القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل/٤٣ .

﴿فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ الفرقان/ ٥٩ .

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ فاطر/ ١٤ .

* أهمية الشورى وتقبل النقد والرأى الآخر، حتى لا يحرم المسئول أو القائد ذكاء من حوله، ورحم الله عمر بن الخطاب الذى قال: « رحم الله امرءًا أهدى إلىَّ عيوبى » .

وفى ساحة العلم: من ينقدك فإنما يؤلف معك . وكان النبى ﷺ يعلم أصحابه الشورى، على نحو ما رأينا فى غزوة بدر حيث أشار حباب بن المنذر على النبى بأن ينزل فى مكان محدد يضمن له السيطرة على الموقع .

* الإقناع والحوار الذى يعتمد على الحجة، مع احترام آراء المخالفين، وحسبنا أن نتأمل الحوار القرآنى مع غير المسلمين فهو خير أسوة فى هذا .

* اصطفاء أفضل الأسباب التى تحقق لك مرادك، مع إتقانها .

واصل تصل، فالهبَّات العاطفية فى بداية العمل ثم التراخى والكسل ضد المنهجية العلمية، وقد أكد النبى ﷺ هذه القيمة فقال: « خير العبادة أدومها وإن قل »، وفى القرآن الكريم: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ الحجر/ ٩٩ .

* نقد الذات بين الحين والحين، كى يستدرك المرء على نفسه ... ويكتشف مواضع الخلل ويحدد طرق العلاج، قال النبى ﷺ : « الكَيِّس من دان نفسه » .

* أقم حكمك وقرارك على الأمور اعتمادًا على الحقائق الثابتة، ولا تتبع الهوى أو الظن، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص/ ٢٦، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ النجم/ ٢٨ .

* لا تقع أسيرًا للتقليد الأعمى، فتصاب بالركود الفكرى والجمود العقلى، فتصير عاجزًا عن التفكير والاختراع والإبداع، فتكون عالة على غيرك . وهذه قيمة أكدها القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ البقرة/ ١٧٠ .

* لا تعطل عقلك، بل فكر وتأمل، وكلما زادت دربتك على التأمل والتفكير ارتقت قدراتك العقلية على الوعى والفهم وإدراك الحقائق . وعشرات الآيات فى القرآن دعوة إلى إعمال العقل والتأمل فقد تكرر كثيرًا فى القرآن: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ . . . إلخ .

* لا تقبل أمرًا بدون بينة أو دليل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة/ ١١١ .

* لا تتحرك بدون تخطيط، وحاول أن تمتلك رؤية للمستقبل، مع تحديد الأهداف والطموحات، وأمامنا نموذج قرآنى للتخطيط الممتد خمسة عشر عامًا لمواجهة أزمة غذائية بمصر، حيث اقترح سيدنا يوسف على الملك أن يترك القمح فى سنبله حتى لا يفسد، وتخفيض معدل الاستهلاك فى الطعام فى أيام السعة والرخاء، قال تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يوسف/ ٤٧ . ولنا فى رسول الله سيدنا محمد ﷺ أسوة فى تخطيطه للهجرة من إعداد الزاد والراحلة والدليل والرفيق والتمويه ومن يمحو الأثر وإرسال من يمهد له فى المدينة . . . إلخ .

* الحرص على التوافق فى التخطيط مع سنن الله الكونية، فى التمكين أو الانهيار، وتغير المجتمعات، وسنن النصر والهزيمة .

* كن مستعدًا لمواجهة الأزمات الطارئة دون انهيار، وفى السنة يمكن أن نجد فقها كاملًا للأزمات . من ذلك:

* موقف النبى ﷺ فى الغار حين وصل الكفار إلى الغار، وكيف تماسك النبى وثبت واستعان بالله تعالى بل وطمأن صاحبه .

* أيضًا موقفه ﷺ وأصحابه بعد أحد لما أرسل إليهم أبو سفيان بأنه سيعود إليهم ليستأصلهم عن آخرهم فثبت النبى وأصحابه وأعادوا تنظيم صفوفهم، فلما علم أبو سفيان بثباتهم لم يرجع إليهم، فأنزل الله قوله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ آل عمران/ ١٧٣ .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾

هل ستوقظنا الكارثة؟

فى قلوبنا مأتم، فجرح أمتنا غائر، وحجم الكارثة مهول، والسقوط ذريع . إننا نستشعر الهوان مع كل لحظة تمر مع الاجتياح الطاغى للمارد الأمريكى الذى يستخف بعقولنا حين يطلق تعبير «تحرير العراق» على تدمير بغداد و العراق!

ونجلس أمام شاشات التليفزيون يتملَّكنا الأسى والمرارة من عجزنا عن دفع الإجرام عن عرضنا وعن أرضنا وعن كرامتنا، ومع كل هجمة شرسة للعدو ينبغى أن تهزنا صرخات شهداء الأمة التى تستغيث وتجأر وتصرخ فينا، لا طلبًا للنجدة أو الإنقاذ لأن فاقد الوعى لا يُنتَظَر منه نجدة ولا إنقاذ، وإنما تصرخ فينا دماء الشهداء:

* أن لا نجعل دماءهم رخيصة كما جعلها الأعداء، تصرخ فينا أن تستيقظ الأمة الغافلة لتسترد وعيها المفقود، وأن نعلم أبناءنا الدرس كى لا تتكرر المأساة فالمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين .

* أن نعلم أولادنا أن التاريخ يصنعه الأقوياء، أما الضعفاء فلا مكان لهم إلا على موائد التبعية والهوان .

* أن نعلم أولادنا بأن التمزق والتشتت والتفرق هو أخطر العِلَل التى تأتى على الأمة، وكيف يَطلب النصرَ من وضع يده فى يد عدوه ورفض أن يضع يده في يد أخيه؟

* أن نعلم أولادنا أن العلم هو أساس الحضارة وأساس القوة، وأن التخلف العلمى جريمة فى حق المسلمين، فمتى تستيقظ أمة (اقْرَأْ)، أمة العلم ؟

* أن نعلم أولادنا أن الطموح والنصر لا يتحقق بضربة حظ أو بانفعال عنترى، أو بتهور، وأن أسلوب رد الفعل هو أسلوب

الضعفاء، أهل الخمول والكسل، وأن المتخاذل عن حق أمته فما يصيبه من نكبات يكون عقوبة مستحقة لتراجعه وتخلفه وتأخره .

* أمتى: هل يمكن أن نبقى مسلوبى الإرادة مشلولى التفكير عن إعداد ما يلزم من القوة لدحر هذه الموجة الشيطانية لهذا الشر البشع ؟!

* إن لكل شيطان تعويذة تواجهه، وتعويذتنا لا تكون إلا ببناء جيل فدائى يؤمن بالله ويمضى على طريق الجهاد لمواجهة الأشرار .

* ولا بد لكى ندرك هذا الهدف أن نزيل من إعلامنا كل ما يخدر الشعب ويضعف مقاومته وإيمانه، أو يخدعه بأوهام السلام المزعوم مع عدو غادر، الحق عنده هو القوة، والقيمة والخلق عنده هى المصلحة .

* أمتى: .. نمنا قرونًا .. تفرقنا قرونًا .. تخلَّفنا قرونًا .. فهل ستوقظنا الكارثة ؟ أم يذهب الله بنا ويأتى بقوم آخرين ثم لا يكونون أمثالنا .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

القرآن إيقاظ للعقول

الفهم، التدبر، التفكر، العقل، أولو الألباب: ألفاظ تكررت فى الخطاب القرآنى فى آيات كثيرة، فى سياق حملته الجادة على الجمود والتقليد الأعمى، فعاب على الكفار تقليدهم للباطل وتمسكهم بما ورثوه عن آبائهم، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ البقرة/ ١٧٠ .

كما دعا القرآن الكريم إلى تدبر الآيات وفهم المراد منها فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ محمد/ ٢٤ .

كذلك دعا القرآن الكريم إلى التفكير والتأمل فيما خلق الله وأبدع، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ آل عمران/ ١٩٠ .

كما دعا القرآن إلى إعمال وسائل الإدراك وإيقاظها فى آيات كثيرة، تبدأ بجملة استفهامية، نحو: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ النحل/ ٤٨، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ الغاشية/ ١٧، كما ختمت آيات كثيرة بنحو قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ، ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ .

ونجد أن العقل هو أساس التكليف فى الإسلام، حيث إن التكليف يسقط عمن فقد عقله . ولقد حرَّم الله فى كتابه الكريم كل ما يضر العقل أو يغيبه، فحرم المسكرات كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ المائدة/ ٩٠ .

وأشار القرآن الكريم إلى أن تنمية العقل تكون بالعلم، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ العنكبوت/ ٤٣ . فنعمة الفهم تتربى بالعلم .

وهكذا يتأكد لنا أن القرآن إيقاظ للعقل من الغفلة والجمود والتقليد والتعصب؛ وذلك لأن يقظة العقل هى باب التكريم للإنسان وأساس الحضارة والهداية .

فهل آن لأزمة العقل المسلم أن تنفرج ليأخذ دوره فى الحضارة؟!

وهل آن لنا أن نتحول عن أسلوب التلقين فى التعليم إلى أسلوب التفكير كى نهيئ العقل لدوره فى الاختراع والاكتشاف؟!

وهل آن لنا أن نضم مع جهود تحفيظ القرآن جهودَ الفهم والتدبر للآيات، وأن نعلم أبناءنا آفاق التفكير العلمى فى القرآن الكريم؟!

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

القرآن مصدر للصحة النفسية

*** البناء الإيمانى للشخصية السوية:**

يتناول القرآن الكريم جوانب الشخصية الإنسانية: جسمه وعقله، وروحه، وكل نشاطه وحركته فى هذا الكون .

وهذا التكامل في وصف الشخصية يمزج بين طاقات الإنسان، ويجعل منه قوة فاعلة ويحفِّزه لأن يكون مؤثرًا، يرقى بنفسه وبعالمه، وعلي سبيل المثال: نرى أن القرآن يذكِّر الإنسان بالقدرات والطاقات المتاحة بين يديه ليحسن توظيفها، قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ الجاثية/١٣ .

وفى المقابل يحذر القرآن الإنسان من أن يتصف بالسلوك المتخاذل الذى يجعله ضعيفًا متخاذلًا أو منهارًا أمام رغباته وشهواته، من ذلك قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ آل عمران/ ١٤ .

ثم إن القرآن يحدد للإنسان معالم الشخصية السوية بأنها التى تتحرك فى حدود طاقاتها وقدرتها، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ البقرة/ ٢٨٦ .

ويؤكد القرآن أن المسئولية تكون فى حدود طاقة الإنسان وقدرته، قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ الحج/ ٧٨ .

كما يصف القرآن الشخصية السوية بأنها تؤمن بالقدر، تتقبل الأحداث بنفس راضية، وتتجنب الصراع النفسى، من ذلك قول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ الحديد/ ٢٢ .

والتشكيل الإيمانى للشخصية يجعلها تكتسب كل الصفات المحمودة التى وصف الله بها المؤمنين فى القرآن من الإخلاص، والصدق، واحترام الغير، والعفو، والعطاء، والأمانة، وكل القيم التى ترتقى بالإنسان وتحقق له أمنًا نفسيًّا وقدرة على العطاء والحركة النافعة فى الكون .

تبارك الله ربنا، العليم بما خلق، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ الملك/ ١٤ .

*** القرآن شفاء للصدور:**

من اللافت للانتباه استعمال القرآن الكريم كلمة (شفاء) دون كلمة (علاج)، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء/ ٨٢ . فالعلاج لأى داء (حسى أو معنوى) قد يُوفق فيه المعالج فيتحقق الشفاء، وقد لا يُوفق المعالج فلا يتحقق الشفاء .

أما مع القرآن الكريم فأنت فى معيَّة الله الشافى، ومن بين هدى القرآن الكريم الذى يشفى صدور قوم مؤمنين، تلك الآية التى أنزلها الله على رسوله سيدنا محمد ﷺ حين تعرض لحالة طالما نتعرض لها فى حياتنا المعاصرة، وهى حالة ضيق الصدر، بسبب تجاوزات اليهود والمشركين فى حق الله تعالى، حين قالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ آل عمران/ ١٨١ ، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ المائدة/ ٦٤ . وغير ذلك من وصفهم لرسول الله ﷺ بالجنون وبأنه شاعر وكاهن؛ فضاق صدر رسول الله ﷺ بكل ذلك، فأنزل الله تعالى عليه هذه الآيات: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ الحجر/ ٩٧-٩٩ .

وهذه الآيات أرشدت إلى ثلاثة أدوية لضيق الصدر:

* **أولها**: الإكثار من تسبيح الله وحمده؛ فمن دلالات التسبيح فى القرآن الكريم ارتباطه بالفرج، قال تعالى بشأن سيدنا يونس عليه السلام حين التقمه الحوت وصار فى ظلمات ثلاث: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾ الصافات/١٤٣-١٤٤ .

وهناك سر بين ذكر الله تعالى وانشراح الصدر، وانبساط النفس، وقوة البدن، واستعادة نشاطه، فعندما جاءت السيدة فاطمة - رضى الله عنها - لرسول الله ﷺ تطلب منه خادمًا يعينها على شئون البيت، قال لها رسول الله ﷺ : «ألا أدلك على أفضل من ذلك ؟ » قالت: بلى . فقال لها: «إذا أويت إلى فراشك فسبحى الله ثلاثًا وثلاثين، واحمديه ثلاثًا وثلاثين، وكبريه ثلاثًا وثلاثين»، ففعلت السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ذلك فوجدت قوة فى بدنها واستغنت عن الخادم .

* **ثانيها**: السجود بكل معانيه: سجود القلب، وسجود العقل، والصلاة . فبالسجود يقترب الإنسان من ربه ويرتفع عن عالم الأحقاد والضغائن، فيكون للإنسان الساجد الطهر والنقاء . ومن هدى المصطفى ﷺ أنه كان إذا أهمه أمر نادى بلالًا: «أرحنا بها يا بلال»، أى: بالصلاة .

* **ثالثها**: المداومة على الذكر والطاعة انتظارًا للحظة الرحيل عن دنيا الناس؛ إنما هو مشغول بما هو أعلى وأغلى: بلقاء ربه ساعة أن يأتيه اليقين، والمراد باليقين هنا فى هذه الآية: الموت .

وهكذا دلنا القرآن على التسبيح والسجود والمداومة على الذكر والعبادة؛ انتظارًا للحظة الموت، كأدوية نتحصَّل بها على الشفاء من الله الشافى إذا أصابنا ضيق صدر من أحداث الحياة وضغوطها، اللهم اشف صدورنا .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

القرآن معجزة عقلية

المتأمل للمعجزة التى أيَّد الله بها خاتم المرسلين سيدنا محمدًا ﷺ فى ضوء معجزات الأنبياء السابقين، يرى أن معجزات الأنبياء قبل رسول الله ﷺ كانت معجزات حسية: كسفينة نوح وعصا موسى وناقة صالح . . .إلخ . أما معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة السلام أجمعين - فلم تكن شيئًا من جنس هذه الخوارق المادية، فلا هى سفينة نوح ولا عصا موسى ولا ناقة صالح، ولا شىء من ذلك، إنما كانت قرآنًا يوحى من الله - عز وجل .

إنها معجزة لا تدرك بالعين والأذن والحواس الظاهرة وإنما تدرك بالعقول، فالقرآن الكريم معجزة عقلية، ومن هنا ندرك الحقائق التالية:

إن كانت المعجزات الحسية من الخوارق المادية معجزات باهرة للعقل ومدهشة له، لكنها لا تحتكم إليه، فإن المعجزة العقلية (القرآن الكريم) ترشد العقل وترقى به، وتعظم من دوره فتحتكم إليه وتجعله أساس التكليف .

والقرآن معجزة عقلية يقوم إدراكها على التفكير والتدبر والفهم والعلم ومحاربة التقليد الأعمى أو التسليم لتبعية الهوى . وعشرات الآيات تؤكد هذه الحقيقة، ويكفى تأمل المفردات التالية فى آيات القرآن لتكون دليلًا قاطعًا: أولى الألباب، أفلا تعقلون، يتفكرون، يعقلون، يتدبرون . . .إلى آخر ألفاظ الإدراك والفهم فى آيات القرآن الكريم، كما فى الآيات الكريمة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يوسف/١٠٩ .

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ

ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ الرعد/ ٣ .

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ النساء/ ٨٢ .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ الأنعام/ ٩٧ .

﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ البقرة/ ١٩٧ .

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ آل عمران/ ١٩٠ .

ومن هنا يتأكد لنا أن التعامل مع هذه المعجزة العقلية ينبغى أن يكون فى مستوى الرشد والوعى المناسب لها، وألاَّ نتراجع بهذه المعجزة العقلية إلى المعجزات الحسية، وأن نرقى بهذه المعجزة العقلية بعيدًا عن الأوهام والخرافات .

والقرآن معجزة عقلية لها الخلود؛ لدوام تأثيرها فى العقل على مر العصور، ولا ترتبط بعصر نزول القرآن، كما هى الحال فى المعجزات الحسية، والعقل الإنسانى مطالب فى كل لحظة وكل زمن بتدبر الخطاب الإلهى، والوعى بأساليب القرآن فى صياغة الأمة صياغة حضارية .

وهذه رسالة إلى من اتخذوا الغرب قبلة حضارية وفكرية ورأوا فيهم المدينة الفاضلة ونبذوا القرآن وراء ظهورهم، واستطاع الغرب من خلال هؤلاء أن يشق وحدة عقل الأمة، ولا يزال الغرب يحاصر محاولات يقظة العقل المسلم، ليبقى الفراغ فى الحياة الفكرية فرصة للغرب كى يملأه بالتغريب .

وإن عَجَزْنا فى ظروفنا المعاصرة عن الجهاد القتالى للمستعمر لفارق القوة، فما بالنا نتثاقل عن الجهاد المدنى وهو أساس التغيير .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

القرآن مُقدَّم

فى غزوة تبوك كانت راية بنى مالك بن النجار مع عمارة بن حزم، فأخذها منه رسول الله ﷺ ودفعها إلى زيد بن ثابت كاتب الوحى، فقال عمارة: يا رسول الله، هل بلغك عنى شىءٌ؟ فقال ﷺ : « لا ، ولكن القرآن مقدم، وزيد أكثر منك أخذًا للقرآن » .

وهكذا كانت أفعال رسول الله ﷺ فى الجانب التطبيقى تربط الأمة بالقرآن، وتقدِّم أهل القرآن، وكم من مرة نرى رسول الله ﷺ قد زوَّج من لا يملك مالًا ولا دينارًا بما معه من القرآن يجعله مَهْرًا، وقدَّم ﷺ عند دفن الشهداء حاملَ القرآن، وقدّم زيد بن ثابت على صاحبه، ودفع إليه الراية لأنه أكثر حفظًا للقرآن، وأوصى النبى ﷺ أن يُقَدَّم لإمامة الصلاة أقرؤهم للقرآن .

كل هذا يؤكد حقيقة مهمة، هى أن القرآن مُقدَّم، ويُرفَع صاحبه إلى المنازل الرفيعة والدرجات العالية .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْتَقِ ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » أخرجه أبو داود .

كما أن القرآن يجعل صاحبه خير الناس وأفضلهم، قال ﷺ : « خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه » .

إن أهل القرآن قوم اصطفاهم الله - عز وجل - وعلى قدر تمسكهم بالقرآن تكون منزلتهم عند الله - عز وجل - قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ فاطر/ ٣٢ .

ويرى المتأمل أن القرآن نزل على خير نبى لخير أمة أخرجت للناس فى أكرم ليلة، فى أفضل شهر، وتبارك من هذا كلامه .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

القرآن منهج حياة

تبارك الله ربنا العليم الحكيم الذى أنزل القرآن تبيانًا لكل شىء، من أجل هداية الإنسان، فرسم فيه المنهاج العملى للإنسان ليرقى لمنزلة خير أمة أخرجت للناس .

* فبيَّن أسس علاقته بربه ومولاه: أن يعبده ولا يشرك به شيئًا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ الزمر/ ١١ .

* وبيَّن القرآن علاقة الإنسان بنفسه التى سوَّاها ربنا بقدرته، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ الشمس/ ٧، ٨ .

* ووضح الله علاقة الإنسان بالكون: أن يتأمله وينظر فيه ليهتدى به إلى خالقه ومبدعه، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هود/ ٦١ . وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يونس/ ١٠١ .

* ووضح الله للإنسان علاقته بالحياة الدنيا: أن يتخذها مزرعة للدار الآخرة، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ البقرة/ ٢٠١ .

* ووضح علاقة الإنسان بأسرته، فأقامها على المودة والرحمة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم/ ٢١، وجعل الله إكرام الوالدين عبادة، فقال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ البقرة/ ٨٣ .

* ووضحت آيات القرآن علاقة الإنسان بجيرانه وإخوانه من حوله، كما رسمت الآيات الآداب الرفيعة التى يتعامل بها الإنسان فى مجتمعه، من ذلك ما جاء فى وصف عباد الرحمن، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ الفرقان/ ٦٣ .

* ثم وضح القرآن علاقة الإنسان بأمته الكبرى- أمة الإسلام- أن

يغار عليها ويذود عنها، داعيًا إلى الخير، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ آل عمران/ ١٠٤ .

* كما حدد القرآن علاقة الإنسان بغير المسلمين أن يسالم من سالموه، فأحلَّ أكل ذبائح أهل الكتاب والتزوج من نسائهم، وفى هذا إنشاء جسور للمودة والسلام بما يجعل العلاقات الدولية آمنة ومثمرة، ومنهج القرآن منهج خالق النفس العليم بما يصلحها . فهل آن الأوان أن نفسح المجال لكتاب الله أن يصلح ما فسد منَّا بدلًا من هذا التغريب والانسلاخ والتراجع؟

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

القرآن والتربية

أسس التربية فى القرآن الكريم تقوم على محورين:

المحور الأول: تقوية الإيمان؛ إذ هو الدافع والمحرك لكل الفضائل.

المحور الثانى: العمل الصالح الموافق لهدى القرآن الكريم وسنة النبى ﷺ ويرجى به وجه الله - عز وجل - فالرجل الذى جاء إلى رسول الله ﷺ يستفتيه فى حاله قائلًا: يا رسول الله، إنى أقف الموقف العظيم وأعمل العمل الكبير أريد وجه الله، غير أنى أريد مع ذلك أن يقول الناس عنى خيرًا، إنه رجل مغرم بالشهرة والثناء، فأنزل الله فيه آخر سورة الكهف، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ الكهف/ ١١٠.

وتقوم التربية فى القرآن على الإقناع والترغيب انطلاقًا من أن الإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل، ولذلك ركز القرآن فى التربية الإيمانية على إقناع العقل بهدى القرآن من أوامر ونواهٍ بإظهار الحكمة من ورائها وبيان الثمرة التى تُرْجَى من طاعة الله، وبيان العاقبة لمن عصى، فمثلًا حين يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نؤمن به فإنه يبين أحقيته بهذا الإيمان فهو فاطر السماوات والأرض وهو المحيى وهو المميت، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ فاطر/ ٣.

وحين ينهانا الله - عز وجل - فإنه يبين الحكمة من هذا النهى كما فى قوله تعالى فى سورة الآداب الإنسانية والأخلاق الإجتماعية (الحجرات): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ الحجرات/ ١١.

ومثل ذلك فى القرآن كثير، فالله - سبحانه وتعالى - يقرن الأمر بعلته ويقرن النهى بعاقبته .

ثم ضرب القرآن الكريم أمثلة عملية من تاريخ البشرية لتكون نموذجًا تطبيقيًّا لمن اتبع وأطاع ففاز، ولمن خالف وعصى فضلَّ وهلك .

إنها نماذج عملية للتحذير كى لا نقع فى مثل ما وقعوا فيه فنضل ونشقى، وهكذا يغرس القرآن الكريم فى عقول الناس وفى قلوبهم أدب الإيمان حتى يصيروا قرآنيين متأسين بحبيبهم المصطفى ﷺ حين وصفته السيدة عائشة رضى الله عنها بقولها: «كان خلقه القرآن» لقد كان ﷺ قرآنًا يمشى على الأرض .

*** القرآن ونماذج الفضيلة:**

لقد قدم القرآن الكريم أفضل النماذج الهادية لنقتدى بها، فنكون ممن رضى الله عنهم وتولاهم بعنايته، فقدم لنا نموذجًا للعفة والطهارة نقتدى به فلا نسقط فى الفتنة ولا تزيغ قلوبنا مع الهوى، يتجلَّى هذا النموذج واضحًا فى نبى الله يوسف عليه السلام وقصته مع امرأة العزيز، واستعصامه بربه، فنجَّاه الله - عز وجل - وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ يوسف/ ٣٣ .

كما قدم لنا القرآن نموذجًا للقوة مع الأمانة، وتجلى هذا النموذج واضحًا فى نبى الله موسى - عليه السلام - وذلك حين سقى لابنتى شعيب - عليه السلام - وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ

﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ القصص/ ٢٣-٢٦ .

ويقدم القرآن الكريم نموذجًا هاديًا للبحث المنهجى والتفكير العلمى وعدم التبعية لروح القبلية والتقليد الأعمى، وقد تجلى هذا النموذج فى نبى الله إبراهيم - عليه السلام - فى قصة إيمانه وإعراضه عن عبادة الشمس والقمر حتى هداه الله لعبادة الحق الواحد الأحد: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ الأنعام/ ٧٥-٧٩ .

كما لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى نموذج فريد فى الصبر على البلاء، وتجلّى هذا النموذج واضحًا فى نبى الله أيوب - عليه السلام - الذى صبر ابتغاء مرضاة الله وكان دعاؤه فى أدب جم وإيمان عميق ويقين ثابت، يظهر ذلك فى قول الله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ الأنبياء/ ٨٣ .

كما قدم لنا القرآن الكريم نموذجًا عظيمًا فى التماسك وعدم الذوبان فى الآخر، ويتجلى هذا النموذج واضحًا فى فتية الكهف الذين آمنوا بربهم، وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا

﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ الكهف/ ١٣-١٦ .

ثم أجمل الله فى القرآن الكريم كمالات الأسوة ومعالى القدوة فى سيدنا محمد ﷺ فدعانا إلى التأسى به، كما فى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ الأحزاب/ ٢١ .

وهكذا نجد أن القرآن الكريم قدم نماذج هادية للفضيلة كى تكون عونًا للمؤمن فى المجال العملى ليكون على درب الصالحين والفالحين .

وأما عن آفاق التربية القرآنية فهى تشمل علاقة العبد بربه، وتشمل علاقة العبد بنفسه، وتشمل علاقة العبد بغيره من الناس، وتشمل علاقته بكل المخلوقات وبالكون من حوله، ولكل علاقة من هذه العلاقات آداب وهدايات يرقى بها الإنسان إلى منازل الرضا ودرجات المقربين، ويتحول الإنسان بهذه الآداب وتلك الهدايات من إنسان كنود هلوع جزوع إلى إنسان يشكر ربه: يرجو خيره ويأمن سوء العاقبة، يعفو ويغفر، ويعطى ويؤثر، إلى الخير سبَّاق، وإلى مرضاة ربه يسارع، كيف لا والله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ الإسراء/ ٩ .

*** المنهج القرآنى لتربية النفس:**

الإصلاح والمداواة قبل العقاب والمجازاة . . حقيقة يقوم عليها منهج القرآن فى تربية النفوس، حيث يركز القرآن على غرس حب الفضائل وبغض الرذائل فى النفوس؛ كي يكون الخير نابعًا من داخل النفس الزكية وليس مفروضًا عليها بقوة من خارجها، فيقظة الضمير

وتربية الإحساس بأن الله رقيب علينا أمر أساسي فى تربية القرآن للنفس، ومن الآيات التي نجد فيها هذه الحقيقة قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ الملك/ ١٣ .

وبهذا حوَّل القرآن مجتمع الهمجية والعدوان إلى مجتمع آمن يأمن فيه الناس على أعراضهم وأموالهم .

وتتأكد لنا هذه الحقيقة حين نتأمل واقع الجريمة والفساد فى عالمنا المعاصر . . هل نجحت المؤسسات العقابية فى السيطرة على الجريمة؟ أم أن الإجرام قد طوَّر من نفسه كى يستطيع الإفلات من العقاب؟

- فكم من مجرم احتاط لنفسه واحتال لإخفاء معالم جريمته !

- وكم من جرائم ترتكب فى السرّ لا يصل إليها شرطي ولا قانون !

- وكم كان للحيل القانونية والتزوير دور فى التحايل على أركان ثبوت الجريمة، وانقلب الحق باطلًا والباطل حقًا!

وفى إطار هذا الجو الملوث نشأت عقليات إجرامية خطيرة، لها مكرها وحيلها ووسائلها فى إخفاء معالم الجريمة، وحتى أولئك الذين لم يفلتوا من العقاب خرجوا من السجون أشد إجرامًا .

وستزداد الجرائم خطورةً وانتشارًا إن لم تُعَالَجْ مصادرها فى النفس كما أمر خالق النفس فى القرآن، وسبحان الله القائل:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ الشمس: ٧-١٠ .

وهدى القرآن الكريم فى تزكية النفوس لا يصادر الغرائز وإنما يهذبها ويجعل لها وسائل إشباع من الحلال، كما يربِّى القرآن فى النفس القدرة على التحكم فى المشاعر والسيطرة على الانفعالات الجامحة التى تؤدى إلى ارتكاب الشرور والحماقات .

كما يبث القرآن فى النفس روح الإخاء وحب العطاء، ولا يجعل التفاضل بين الناس بلونٍ أو لغة، وإنما بالعمل الصالح .

فما أحوجنا لأن نفسح المجال لمنهج القرآن فى تربية النفوس: فى بيوتنا ومدارسنا وإعلامنا، كي نحبب الخير إلى أولادنا ونغرسه فى نفوسهم لا أن نفرضه عليهم، وأن نقدم الإصلاح والمداواة على العقاب والمجازاة .

فالتربية القرآنية هى أكرم منهج لأكرم حياة .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

القرآن والتنوير

جاء القرآن الكريم نورًا يبدد ظلمات العقل بنور المعرفة، ويمحو ظلمات القلب بالسكينة والطمأنينة، ويملأ النفوس بالرضا؛ لذلك أخبر الله عن القرآن أنه نور، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ النساء/ ١٧٤ . كما أخبر الحق تبارك وتعالى أن القرآن ينقذ الناس من الظلمات والضلال، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إبراهيم/ ١ .

وما أحوجنا إلى هذا التنوير القرآنى الذى يحقق لنا حياة الأمان والسكينة والطمأنينة والرضا، وما ذلك إلا لأنه مستمد من الله الخالق مصدر كل نور، قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النور/ ٣٥ .

فالله نور السماوات والأرض، نوَّرهما بالنور الحسى: بالشمس والقمر والنجوم، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ الفرقان/ ٦١ .

والله نور السماوات والأرض، نوَّرهما بالنور المعنوى: بالكتب السماوية والرسل والأنبياء وأسباب الهداية التى أنعم الله بها على عباده، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ النساء/ ١٧٤، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ المائدة/ ١٥ .

والعبد المؤمن إذا تأدب بأدب القرآن واهتدى بهديه يفيض الله عليه من هذا النور، فتتحول حياته إلى منازل القرب والرضا، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ الأنعام/ ١٢٢ . وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ الحديد/٢٨ .

أما عن ثمرات نور الله فى يوم القيامة، فحسبنا أن نتأمل هذا الموقف الذى يعرضه القرآن ليرغِّب المؤمنين فيما عند الله تعالى من فضل؛ فيسارعوا إلى الخيرات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ التحريم/٨ .

وهذا هو التنوير الحقيقى، والخروج عنه خروج إلى الظلمة والضلال، وسبحان الله القائل: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ النور/ ٤٠ .

لذلك كان من دعائه ﷺ طلب نور الله تعالى؛ فيقول ﷺ: «اللهم اجعل فى قلبى نورًا، وفى بصرى نورًا، وفى سمعى نورًا، وعن يمينى نورًا، وعن يسارى نورًا، ومن فوقى نورًا، ومن تحتى نورًا، اللهم اجعلنى نورًا» .

وأخرج الحاكم فى المستدرك عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: بينما الصحابة جلوس مع رسول الله ﷺ إذ تلا عليهم قول الله تعالى:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الزمر/٢٢ . ثم قال رسول الله ﷺ: «إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح» . فقيل: يا رسول الله، هل لذلك من علامة يُعرف بها؟ فقال ﷺ: «نعم: التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله» .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

القرآن والجهاد المدنى

كما أن للجهاد القتالى دورًا فى حماية الأمة، فكذلك للجهاد المدنى دور فعَّال فى صياغة الأمة صياغة قرآنية، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا اللون من الجهاد، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ العنكبوت /٦٩، فعلى قدر الجهد المبذول يكون الثمر .

وعن قول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ الفرقان/ ٥٢، يقول ابن كثير : يعنى: بالقرآن، وقال به ابن عباس رضى الله عنهما .

والمتأمل لبداية التكوين لهذه الأمة وكذلك لكثير من فترات حياتها يرى أن إقامة الدين فى المجتمع لم تكن عن طريق السلطان، وإنما كانت عن طريق الجهاد المدنى الذى يركز على بناء العقل والفكر، كما يركز على بناء السلوك القويم فى الناس؛ ليصبح الإسلام بقيمه الأخلاقية وسلوكياته الإيمانية نابعًا من ضمائر الناس وليس مفروضًا عليهم بقوة السلطان .

ولنسأل أنفسنا: كيف تمت إقامة الدين فى المجتمع المكِّى؟ وكيف كانت البدايات فى المدينة بسفير النبى ﷺ للمدينة مصعب بن عمير؟

وهنا يأتى دور التربية لإكساب الأمة قيم الحضارة القرآنية التى تقوم على جناحين:

* **جناح إيماني**: يتمثل فى طلب مرضاة الله عز وجل بالأعمال ، فتتحقق الرقابة الذاتية فلا تهتز الجودة فى غياب القانون والرقابة البشرية .

* **والجناح الثانى**: هو جناح الكفاءة (الإتقان والتميز) ليكون عمل المؤمن فى المقدمة، وبهذا تتحقق لنا القمة والمقدمة التى أشار إليها الله فى القرآن، قال تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران/ ١١٠ .

وهكذا ربى النبى أصحابه وكوَّن مجتمعًا فاضلًا، على الرغم من أن السلطة الحاكمة وقتها لم تكن مؤمنة ولا مؤيدة للجهد المحمدى فى تغيير منظومة الحياة لتكون إسلامية .

وقام المنهج المحمدى فى بناء المجتمع على قاعدة مهمة هى:

* التكوين قبل التمكين، وتغيير النفوس قبل تغيير الأنظمة، فبناء جيل مؤمن مؤهل لحمل راية الإصلاح هو مهمة الأنبياء والرسل وورثتهم من العلماء العاملين، وهو كذلك أساس كل تغيير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد/ ١١ .

ولهذا كانت مهمة القرآن المكى البناء الإيمانى للإنسان ، المثل الأعلى فيه رسول الله ﷺ بجهاد الدعوة والبيان بالقرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ الفرقان/ ٥٢ .

ومن أمثلة الجهاد المدنى وأثره فى البناء، لقاء النبى ﷺ بالحجاج فى موسم الحج، وعرض الإسلام عليهم ، فكانت بيعتا العقبة الصغرى والكبرى ، وإرسال النبى ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم القرآن والدين بالمدينة المنورة، وفتحت المدينة دون قتال ولا سيف، وإنما فتحت بالجهاد المدنى، بالقرآن والدعوة .

وقد سئل الإمام الشافعى: أيهما أولى للمؤمن: الابتلاء أو التمكين ؟ فقال: وهل يكون التمكين إلا بعد الابتلاء؟ إن الله ابتلى يوسف عليه السلام قبل تمكينه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ يوسف/ ٥٦ .

ومن النماذج القرآنية للتطبيق العلمى على الجهاد المدنى ما قصَّ علينا من نبأ سحرة فرعون الذين آمنوا برب موسى وهارون وتحدَّوا

فرعون وجبروته، بعد أن بنى الإيمان فيهم عقلًا جديدًا، ويقينا ثابتا، وعزمًا جديدًا، يظهر ذلك من موقفهم حين هددهم فرعون بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فلم ينهاروا وقالوا فى شموخ وعزة كما جاء فى القرآن:

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢)﴾ طه/ ٧٢ .

وفى إطار محنة الأمة وسقوط كل الأقنعة الكاذبة وظهور الحقيقة المرة، تتعالى الأصوات بالإصلاح، فإذا أردنا الإصلاح الحقيقى فعلينا أن نبدأ البداية الصحيحة، وذلك ببناء الإنسان، نبنى قلبه بالإيمان، وعقله بالمعرفة، وروحه بالعبادة، وخلقه بالفضيلة، وسياسيًّا بالمشاركة والتوعية . وإن فعلنا فنحن على موعد مع الله بالتمكين، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ النور/ ٥٥ .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

القرآن والكون والإنسان

الوصف القرآنى للكون دليل على عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - وآية عظمى على صدق هذا الكتاب الذى ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فصلت/ ٤٢، وقد وجهنا القرآن إلى أن نتأمل ما خلق الله وأبدع وصوَّر لنرى فى عظمة المخلوقات دليلًا على عظمة الخالق .

وهذا الكون الفسيح الذى نعيش فى جزء ضئيل منه ملىء بالحقائق وآيات القدرة، قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ غافر/ ٥٧ .

والتأمل فى الكون للوقوف على أسراره ونواميسه سبيل قويم للإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ الجاثية/ ٣-٦ .

ولفت القرآن انتباه الإنسان إلى حقائق هذا الكون ومعالم القدرة الإلهية في أنحائه، من ذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ الأنعام/ ٥٩ . والغفلة عن حقائق الكون ومعالمه وآياته جهل يعيبه القرآن، لأنه دعانا إلى بناء المعرفة على البصر العميق فى الكون، والبحث المتواصل فيه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ العنكبوت/ ٢٠ .

وعشرات الآيات التى تتعلق بالكون وما فيه تلفت انتباه الإنسان إلى تأمل آيات القدرة والانتفاع بأسرارها، فحديث القرآن عن نزول الماء

بقدر، وأنه آية من آيات الله، يوجب على المسلم أن يقف متأملًا هذه الحقائق باحثًا عن كنهها، وهكذا فى شتى المخلوقات التى تحت سمعنا وبصرنا فى الكون، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ النحل/٤٨، وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ البقرة/ ٢١-٢٢ . وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ لقمان/ ١٠-١١ .

فسبحان الله خالق كل شيء

القرآن والمسئولية الإعلامية

يصنع الإعلام نجومًا مزيفين، وأبطالًا من ورق فى مجالات شتى، أخطرها فى مجال الدين، حيث تصبح الشهرة هى أرقى المؤهلات العلمية وهى التميُّز، ويحس العقلاء والعلماء أن المسألة هكذا لون من التزوير للحقائق، وخلط للأوراق، وإساءة إلى أصحاب المكانة العلمية والكفاءة الحقيقية وامتهان لكرامتهم .

ويأتى القرآن الكريم ليحدد المسئولية الإعلامية التى تقوم على جناحين:

الأول: نشر الفضائل والحث على الخيرات، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ العصر/ ٣ .

والثانى: بث الوعى وتنميته عن طريق فضح الشرور والآثام وكشفها، كى يسلم منها المجتمع، فدعانا إلى اجتناب الآثام، واتقاء الفتن، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ الأنفال/ ٢٥ .

أما التبارى والمنافسة والتقليد الأعمى الفاضح الذى يثير الغرائز، ويخدش حياء المشاهد، ويهبط بالقيم إلى الانحطاط، فكل ذلك يهدم المجتمع ويحرمنا من نعمة الأمن الأخلاقى التى أولاها القرآن الكريم أهمية بالغة فى المسئولية الإعلامية .

كما يركز القرآن الكريم فى المسئولية الإعلامية على الصدق والأمانة، فقد أمر الله نبيه ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه دون تدخل فى الرسالة الإلهية المكلف بتبليغها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ المائدة/ ٦٧ .

أما أن يتحول الحق باطلًا والباطل حقًا، والجاهل عالمًا، والمسىء مبدعًا، والمنحرف المتطاول مفكرًا، وتوزع الألقاب بلا حساب؛ فإننا ندمر عقل الأمة ونخرِّبه .

وخير لنا أن نلتزم المسئولية الإعلامية كما حددها القرآن الكريم إذا أردنا الصلاح لأحوالنا، وصدق الله العظيم فى قوله الحق: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء/ ٩ .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

القرآن وروح الجماعة

إذا تحدثنا عن التنمية الاجتماعية فإننا نعنى بها: تنمية القدرة على المشاركة الجماعية فى الأمور التى تهم المجتمع، من خلال تشجيع الأنشطة التى تخدم البيئة والمجتمع، فالإسلام يحرك فينا دوافع العمل التطوعى، سواء أكان تطوعًا ماليًّا فى صورة زكاة مفروضة أو صدقة أو نافلة، أو كان فى صور أخرى مثل إعانة المحتاج وإغاثة الملهوف أو دعم صاحب الطموح ليبلغ هدفه كطلاب العلم مثلًا .

كما يزكّى الإسلام روح العمل الجماعى تلك التى يطلق عليها فى الحضارة المعاصرة: روح الفريق . فقد أذاع الإسلام شعار « يد الله مع الجماعة »، وصلاة الجمعة والعيدين، والصلوات الخمس، وكلها صور فريدة لحفز وإذكاء روح الجماعة لدى المسلم .

ويحثنا الإسلام على الحفاظ على الإنجازات العامة للمجتمع التى ينتفع بها الناس عامة، نلمس هذا فى تحريم الاعتداء على أشجار الطريق التى يستظل بها الناس، والنهى عن التبول فى الماء الجارى، فالمحافظة على البيئة هدى إسلامى .

ثم هناك مجال الإضافة للمجتمع، فتوظيف طاقات الأفراد من خلال أنشطة اجتماعية سبيل فعال للنهوض بالمجتمع والتغلب على كثير من مشاكله وإنجاز كثير من مشروعات التنمية، قال تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ المائدة/ ٢ .

إن روح الترابط الوثيق بين أفراد المجتمع المسلم من أقوى دعائم التنمية، ومواجهة الأزمات والمحن، قال ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ مشيرًا إلى قوة التضامن والتماسك والوحدة .

لكن المؤلم أن تجد واقعنا يفتقر إلى روح الفريق، ويعانى من الفردية، وتتعاظم فيه الـ «أنا» وتضعف فيه الـ «نحن»، فجهودنا فى مجال العمل الخيرى - فى الأعم الأغلب - مشتتة تفتقر إلى التنسيق بينها كى تتكامل الجهود، فمثلًا فى مشاريع العمل الخيرى نجد تنوعًا فى الأنشطة فى المجمع الواحد، وكلها بدايات لا تقوى على المنافسة، ولو أهل كل منطقة اجتمعوا وتخصص كل مجمع منهم فى نشاط يحسنه ويرقى به إلى مستوى المنافسة؛ فإننا بذلك سنتكامل ونتحول - من خلال روح الفريق - من الكم إلى الكيف . وهناك أمثلة فى الواقع كُتِبَ لها النجاح، وتُعد نموذجًا فى العمل الخيرى الذى تتوفر فيه روح الفريق، مثل: مشروع الجمعية الطبية الإسلامية، معهد معلمى القرآن الكريم، مشروع الطفل اليتيم، وكذلك الأمر فى التعليم ينبغى أن تتحول البحوث والأنشطة التى يُكلف بها الطلاب من الفردية إلى الجماعية، وكذلك التأليف الجماعى الذى تتكامل فيه الرؤى، وهذه كلها مقدمات لروح الفريق الأكبر، وهو: الأمة .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

القرآن وشبهات مردودة

لم تحسن أمريكا إلى نفسها حين خاضت معركة ضد القرآن الكريم، ولا استطاعت بتأليفها «الفرقان الأمريكى» والدعوة لترجمة ألفاظ القرآن الكريم إلى اللاتينية وحذف بعض آياته أن تسىء إلى القرآن .

وسكوت العلماء المسلمين أمام شبهاتهم المردودة وجهالاتهم المفضوحة إنما هو سكوت عن طمأنينة، بأن كل هذه محاولات قد أثيرت ضده منذ لحظة نزوله، وذلك لأن القرآن الكريم حق من عند الله لا ريب فيه، وأن الله تعالى تولى حفظه قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ الحجر/ ٩ .

والحملة الأمريكية العاتية لإثارة الشبه والمطاعن ضد القرآن الكريم جاءت بنتائج عكسية حيث لفتت انتباه الشعوب الغربية إلى هذا الكتاب العظيم الذى تجمع له أمريكا الحشود الثقافية والإمكانات المالية للنيل منه، ولا يزداد الكتاب إلا قوة، وتتضاءل أمامه شبهاتهم الباطلة وجهالاتهم المفضوحة، وبإقبال الشعوب الغربية على القرآن الكريم، تقرأ وتحاول فهمه، اكتشفت هذه الشعوب زيف ما ينسج ضده من شبهات ومطاعن، وعلمت عن يقين أن هذه الشبهات تعود لأحد أمرين:

الأول: جهل من أثاروها بلغة القرآن، فخرجت تعبر عن جهلهم وتشهد لعظمة هذا الكتاب وعصمته .

الثانى: سوء قصدهم وفساد نيتهم، مما يشهد بعظمة هذا الكتاب العظيم .

وتكون العاقبة للقرآن، حيث تجذب أنوار هدايته من أتاه متشككًا ليعود مؤمنًا، وبالفعل آمن عشرات الآلاف من هذا الطريق . . وصدق الله العظيم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ

نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ التوبة/ ٣٢ .

أما الجماهير المسلمة فى شتى أنحاء المعمورة، فقد دفعتها حملتهم العاتية على القرآن إلى الإحساس بالخطر، فأقبلوا على القرآن . يجددون الصلة به تلاوة وتعلمًا وعملًا .

ومن هنا آثر العقلاء خدمة دينهم وقرآنهم وأن لا ننخرط فى معركة محسومة أرادوا أن يجرونا إليها .

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

القرآن وفقه الإصلاح

الإصلاح والتغيير لا يحدث فى الأمم بين عشية وضحاها، وإنما يحتاج إلى وقت لإنجازه، وتعجل النتائج قد يفسد المشروع الإصلاحى .

فالحديث عن الطفرات والتحولات الفجائية لون من هياج المشاعر بانفعالات مندفعة متهورة لا يحقق تقدمًا، وإنما هو ضرب من الأحلام والأوهام .

وهذا درس قرآني علمه سيدنا عمر بن عبد العزيز لولده لما طلب من أبيه أن يتعجل الإصلاح والتغير فقال له: يا أبت ما لك لا تنفذ الأمور، فوالله لا أبالي إن غلت بى وبك القدور !!

فكانت حكمة سيدنا عمر بن عبد العزيز حيث لفت انتباه ولده إلى سنة التدرج فقال له: لا تعجل يا بنى؛ فإن الله تعالى ذم الخمر فى القرآن مرتين وحرمها فى الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة، فيردوه جملة وتكون فتنة .

كيف لا والقرآن يؤكد لنا سنة كونية مطردة فى خلق الله للعالم وللإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ المؤمنون/ ١٢: ١٤ .

بل إن التدرج كان سنة مَرْعِيَّة وسارية فى العبادات والشعائر، فالصلاة اكتملت فرضيتها فى السنة الثانية قبل الهجرة فى ليلة الإسراء والمعراج، والصوم فرض فى المدينة، وكذلك الزكاة والحج . وتدرجت أحكام الخمر: من الذم لها إلى التحذير منها إلى تحريمها . وكان تحريم الربا فى السنة التاسعة من الهجرة بعد أن تأهل الواقع وتأهلت الأمة لهذا المنهج الربانى .

إننا لن نبلغ المقدمة والنصر والتمكين بالأماني والأحلام، وإنما بالعمل، ولن يكون بلوغ الهدف فجأة، وإنما يحتاج إلى وقت وتدرج دون تعجل للنتائج ودون اندفاع أو تهور .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

القرآن ومحاورة المتمرد

الفكر لا يعالج بالبطش والتنكيل أو السب واللعن، وإنما يُعالَج الفكر ويواجه بالفكر . وأقوى وسائل السيطرة على الناس هى السيطرة الفكرية على عقولهم، هذا هو الدرس القرآنى الذى علمه سيدنا بلال لأهل الشرك والكفر، حين اشتدوا عليه فى الأذى والبطش به ليدفعوه إلى الكفر برسول الله ﷺ والإسلام، فقال بلال لسيده فى الجاهلية: يا أمية عذب هذا الجسد كيف شئت! فإنما تعذب جسدًا فانيًا، أما قلبى وعقلى فهما لله الخالق .

نعم يموت الجسد، ولا يموت الفكر الإيمانى؛ وبنفس المنطق والأسلوب فتح سيدنا مصعب بن عمير المدينة بالقرآن، حيث كان يختار من الآيات ما يظهر الحجة البالغة، فآمن خلق كثير بالمدينة؛ وهذا ما يصنعه القرآن بالعقول والقلوب .

وفى القرآن نماذج هادية فى السيطرة على العقول، من ذلك الحوار القرآنى مع نمرود:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ البقرة/ ٢٥٨ .

فالقرآن خطاب الخالق للخلق، وهو وحده القادر على محاورة المتمرد وفضح حججه الواهية؛ إن القرآن كلام الحق، وأولى بأهل الحق أن يواجهوا الهجمة الشرسة على مقدسات هذا الدين بالحجة البالغة، بعيدًا عن التهور والانفعال والاندفاع فى الخطاب، لأن الطامة الكبرى حين يكون حامل لواء الباطل أذكى من حامل لواء الحق!!

وليس أمامنا من ملاذ نتشبث به لتأمين عقول أبنائنا من الغزو الثقافى فى زمن العولمة الذى يحاول جاهدًا اغتيال خصوصيتنا ليس أمامنا من مَلاذٍ سوى القرآن، نعلمه لأبنائنا، فالقرآن وحده هو القادر على محاورة التمرد والطغيان، وكف شرورهما عن البشرية .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

القرآن يسمو بالمشاعر

الإنسان مع القرآن فى رقى دائم، لأنه يسمو بالإنسان ومشاعره ليحلِّق به فى سماء مشاعر الحب والود، وجعل القرآن علاقات الإنسان بالآخرين علاقات طيبة ودودة، وأنت تجد فى القرآن أن أسمى العلاقات وأعلاها هى علاقة الفرد بربه، وهى تقوم على الحب، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾ المائدة/ ٥٤ .

وكذلك جعل علاقة الإنسان بأخيه الإنسان تقوم على روح الأخوة والود، فأخبر عن علاقة الزوج بزوجته بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ الروم/ ٢١ .

وفى جانب البر بالآباء والأمهات نهى عن كل ما يؤذى شعور الوالدين فقال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣)﴾ الإسراء/ ٢٣ .

حتى هؤلاء الفقراء والمساكين قدم الله سبحانه وتعالى رعاية مشاعرهم وحسن استقبالهم على إعطائهم والإحسان إليهم بالصدقات، فقال تعالى: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾ البقرة/ ٢٦٣ .

أيضا أرشد القرآن الكريم إلى إظهار الاهتمام بالإخوان فى المجالس المختلفة رعاية لمشاعرهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ المجادلة/ ١١ .

وأثنى الله فى القرآن على ود رسول الله ﷺ لأصحابه، وبين أثر ذلك من امتلاك قلوبهم بمشاعر الود، ويفهم هذا من قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ آل عمران/ ١٥٩ .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

عالمية القرآن

جلست أستاذة مقارنة الأديان بالجامعة بولاية كاليفورنيا أمام قوله تعالى فى فاتحة الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ واستغرقت فى التفكير طويلًا ثم قالت: ما أعظم هذا الرب! إنه ليس ربًّا لقوم دون قوم، ليس ربًّا للعرب وحدهم ولا لليهود وحدهم، ولا . . .ولا، إنه رب العالمين كلهم . وكانت هذه الآية بداية تأمل لهذه الباحثة انتهت بها إلى الإيمان بالله تعالى .

هذا الموقف يكشف لنا عن حقيقة قرآنية مهمة، وهى: عالمية القرآن .

فالمتأمل للخطاب الإلهي فى القرآن الكريم يرى أنه جاء موجهًا للناس كافة، فأول آية فيه بعد البسملة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ وآخر سورة فيه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ .

فالقرآن يتحدث عن الله رب العالمين، رب الناس، لا رب العرب، ولا رب إسرائيل وحدهم كما يزعمون .

وجاءت نداءات القرآن خالية من أى نزعة أو طابع عنصرى أو إقليمي أو طبقي، وإنما جاءت النداءات القرآنية إما موجهة إلى الناس كافة كما فى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ .

أو تأتى النداءات القرآنية موجهة إلى أهل الأديان السابقة من اليهود والنصارى، فاختار الله لخطابهم صيغة تؤنسهم وتوقظهم، وهى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ .

أو تأتى النداءات القرآنية موجهة لمن آمنوا، كما فى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عامة لكل مؤمن عربيًّا كان أو أعجميًّا . ولا تجد فى القرآن: يا عربى، أو يا أعجمى .

كل ذلك يصل بنا إلى حقيقة مؤكدة وهى: عالمية القرآن وعالمية

الإسلام وعالمية نبي الإسلام الذى أرسله ربه للناس كافة، وهذا يُحَمِّلنا أمانة التبليغ لحقائق القرآن لتصل الرسالة القرآنية إلى كل الناس . وفى هذا خير للبشرية كى تتطهر من الطغيان والإفساد والضلال وترقى إلى النور والرحمة والعدالة والخير .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

عربية القرآن تشكو أهلها!

لغة أى شعب أو أمة هى التى تحمل تراثه وأصالته بجذورها الضاربة فى التاريخ وما تحمل من رصيد ثقافى وعادات وتقاليد تمثل هويته وخصوصيته التى تميزه من غيره من الشعوب والأمم .

فاللغة من أقوى عوامل المحافظة على الهوية والقومية، ومن الخطورة بمكان أن يفرط الإنسان فى لغته؛ لأن معنى هذا أنه يفرط فى ذاته وتراثه وأصالته، ومصيره الذوبان فى الآخر والتلاشى من الحياة؛ ومن هنا نجد الصراع اللغوى لاهبًا حيث يحاول أهل كل لغة أن يفرضوا سيطرتها على الآخرين وبخاصة اللغة الإنجليزية التى يعيش معها العالم عولمة لغوية؛ حيث تنفق المليارات من خلال مؤسسات عديدة، منها على سبيل المثال:

وكالة التنمية الدولية (AID) - وكالة الإعلان الأمريكية (USIA) - إدارة الدولة (SD) .

أما اللغة الفرنسية فتدعمها مؤسسة الفرانكفونية فى جميع أنحاء العالم، لدرجة أنه فى قمة داكار الفرانكفونية (مايو ١٩٨٩) أعلن الرئيس ميتران أن فرنسا سوف تلغى الدين العام على البلدان الأفريقية، الذى يصل إلى ١٦ بليون فرنك فى مقابل أن تبقى اللغة الفرنسية فى معاملات الحكومة والتعليم فى هذه البلاد .

والحال نفسها فى اللغة الألمانية، وحتى اللغة العبرية، فقد استطاع اليهود فى أقل من قرن تحويلها من لغة ميتة لا تستخدم إلا فى الأغراض الدينية إلى لغة حية لها قاموسها وأدبها الذى وصل لمستوى العالمية بفوز يوسف عجنون بجائزة نوبل للآداب، وتقوم مراكز عبرية على خدمة اللغة العبرية ودعم وجودها .

فإذا انتقلنا إلى العربية وجدنا عجبًا من أهلها، فأنت ترى حملة التغريب اللغوية فى شوارعنا فى أسماء المحلات والمؤسسات مثل: « شوبنج سنتر »،« جراند مول »، « أى سى سنتر »، والأدهى من ذلك أن ترى التلفزيون يفتح باب التغريب اللغوى على مصراعيه حيث نرى على شاشات التلفزيون أسماء البرامج التالية: (ويك إند)، (ماتينيه)، (توب كليب) .

ولا عزاء لمجمع اللغة العربية الذى ينادى بتعريب العلوم وتحويل الدراسات العلمية إلى اللغة العربية بدلًا من التدريس باللغات الأجنبية، ويوصى فى كل عام بالتزام اللغة العربية فى الإعلام لأنها هويتنا وأصالتنا، لكن من يسمع ومن يستجيب؟!

إن عربية القرآن تشكو الغربة بين أهلها !!

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

نبوءة قرآنية

تعانى البشرية فى عصرنا مشكلةً خطيرة، تُعقَد من أجلها المؤتمرات العالمية، وكان آخرها مؤتمر جوهانسبرج/ ٢٠٠٢م، كما أصبح للمشكلة أبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية . .إلخ ، إنها مشكلة « تلوث البيئة » .

وقد كان للقرآن الكريم السبق فى الكشف عن هذه المشكلة، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ الروم/ ٤١ .

وتؤكد الآية أن الإنسان سيدفع ثمن ما خَرَّبت يداه وما صنع من إفساد فى البيئة التى جعلها الله صالحة له، وجعله مستخلفًا فيها لعمارتها لا لتدميرها أو إفسادها .

لقد أساء الإنسان استخدام البيئة، ولم تتورع البشرية عن جنونها فى إفساد نعمة عظيمة سخرها الله لبنى الإنسان، وامتد هذا الإفساد ليشمل البر والبحر والجو . وبحسبك بعض الأمثلة الصارخة التى تدلل على حقيقة الإفساد: خذ مثلًا التفجيرات النووية فى باطن الأرض والبحار وتأثيراتها الضارة، والغازات السامة التى تملأ الجو بسبب الصناعات البتروكيميائية، وأثر ذلك على طبقة الأوزون، وكذلك الأسمدة الملوثة والمبيدات فى عالم النباتات، وأيضًا بعض الأعلاف الضارة التى تسببت فى جنون البقر، وتسببت أخيرًا فى وباء الدجاج . . .إلخ .

ودفع الإنسان الثمن فادحًا لهذا الإفساد، فكانت أمراض العصر: القلب، والسرطان، والسكر، والاكتئاب، وضعف الذاكرة . . .إلخ .

وتتوالى نبوءات الآية، حيث تشير الآية إلى محاولة البشر التخلى عن هذا الإفساد البيئى ومحاولة معالجة ما أفسدت أيدينا، فقال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ .

حقًّا إنه الإعجاز القرآنى الدائم ما دامت السماوات والأرض، وحقائق هذا الإعجاز القرآنى تجلو الغشاوات التى تحجب النور عن عيون الغافلين .

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

هل هجرنا القرآن ؟!!

قضت حكمة البارى سبحانه وتعالى أن أودع فى القرآن الكريم أسرار المجد والرفعة والهداية والرحمة والنور والبركة . وهذه حقيقة تؤكدها عشرات الآيات، من ذلك قوله تعالى : ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ ق/ ١، ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ ص/ ١، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ الإسراء/ ٩، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء/ ٨٢ . . . إلخ .

وهذه البركات القرآنية لا تتأتى لمن حاز نسخة من مصحف طبع طباعة فاخرة، ثم وضعه فى ناحية الحجرة يلتمس به البركة والتحصين، أو وضعه فى مؤخرة السيارة يلتمس الحفظ لها من أعين الحساد وحوادث الطرق، أو وضعه فى مكان بارز من البيت استكمالًا لوسائل الزينة والتجميل . . .ومثل هذا فى حياتنا كثير يضيق عنه الحصر .

كما أن البركات القرآنية لا تتأتى لمن ذهب يتغنى بالقرآن فى المحافل العامة كالعزاء ونحوه دون خشوع أو مراعاة لأدب التلاوة، وكل همه أن يستجلب آهات الإعجاب من جمهور المستمعين والمشاهدين كى يرقى اسمه فى معارج الشهرة ويعود ذلك عليه بالمال الوفير؛ لدرجة أن بعضهم يصيبه السوء إن وجد إنصاتًا من الجمهور، وقد يتهم هذا الجمهور المتأدب المنصت بأنه ليس (سَمِّيعًا) أى لا يتذوق حلاوة التلاوة ولا يهيم مع صوت القارئ ونغماته ولا يتمايل طربًا لمقاماته .

كما أن البركات القرآنية لا تتأتى لمن يتلاعبون بألفاظ القرآن وآياته انتصارًا لآرائهم وتغليبًا لأهوائهم ساعة أن يحتدَّ النقاش والجدال وربما الاتهامات بين علماء الدنيا الذين يطلبون العلم للمباهاة والتعالي .

كما أن البركات القرآنية لا تتأتى لمن يقدم صاحب الوساطة على أهل الكفاءة فى العمل، وفى حياتنا آلاف الصور التى تهتز فيها العدالة والأمانة بين أيدينا، وكلها أحوال مخالفة شكاها النبى ﷺ إلى ربه تعالى، فقد جاء فى القرآن قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾ الفرقان/ ٣٠ .

لقد هجرنا القرآن حين هجرنا العمل بآدابه وأخلاقه وتشريعاته، وعطَّلنا الآيات وقدَّمنا عليها آراء البشر وأهواءهم، مع أن الله تعالى نهانا عن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١﴾ الحجرات/ ١ .

وحالنا اليوم على ما ترى . فكثيرًا ما نقدم على الله ورسوله، فيتجرأ هذا على الله - سبحانه وتعالى - ويتطاول ذاك على رسوله ﷺ . أين نحن من حديث المصطفى ﷺ: «يُؤْتَى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به فى الدنيا» رواه مسلم .

والمفارقة العجيبة أن نهجر القرآن ثم نلتمس بركته، وهذا لا يكون؛ لأن بركة القرآن لمن يعمل به، أما من ترك العمل بالقرآن فقد حُرِمَ خيره وبركته .

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

يا أمة القرآن

المتأمل للبيئة التى نزل فيها القرآن الكريم، يرى أنها كانت غارقة فى البداوة، البداوة فى كل شىء: البداوة فى الفكر، فكان الرجل يصنع إلهه من العجوة فإذا جاع أكله، وكان بينهم العنصرية، فالمجتمع سادة وعبيد، وكان جمود العقل يحكم اختيارهم، فكانوا أسرى للتقليد الأعمى لِما ألفوا عليه آباءهم .

والبداوة فى الأخلاق، فكان بينهم وأد البنات خوفًا من العار، واحتدت العداوة بينهم بسبب الصراع على أماكن الرعى ومصادر المياه، لقد سيطرت عليهم روح القبَلية وما يتبعها من التعاظم والتعالى والنقائص .

فلما نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ، وكانت النبوة والرسالة، حوَّل القرآن الكريم كل مظاهر الضلال والفساد إلى الهداية والنور، نوَّر القرآن عقول الأمة وحررها من التقليد الأعمى، وجعلها تقيم اختيارها على أسس فكرية وإيمانية، وأيقظ القرآن العقل، فجاءت عشرات الآيات تحث العقل على التفكير، فكثيرًا ما تكرر فى نهايات الآيات القرآنية: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ .

وكما أيقظ القرآن عقولهم، فقد هذب أخلاقهم، فبدَّل عدوانهم محبةً وألفة وتفرقهم وتشتتهم اجتماعًا وتعاونًا، وحول المجتمع القبلى إلى مجتمع حضارى . قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة/ ٢ . كما جاء الخطاب بضمير الجمع ليعلمهم روح الجماعة .

لقد صنع القرآن حضارة الخير والعدل فسادت العالم كله ونشرت قيم الخير والعدالة والحب والعطاء والأمانة والصدق، نعم لأنها حضارة خير أمة أخرجت للناس .

والسؤال الذى يطرح علينا نفسه بإلحاح فى هذا السياق هو: ما الذى غاب عن منظومة حضارة الإسلام؟ أليس القرآن موجودًا بيننا؟

إن القرآن موجود فى ملايين المصاحف فى طبعات فخمة مزينة، وفى آلاف الأشرطة المسجلة وأسطوانات الحاسب الآلى، وكذلك السنة النبوية بيننا بصورة لم تكن متاحة لدى السلف، فأسطوانة صغيرة تتيح لك موسوعة السنة النبوية، أين هذا مما كان عليه السلف من معاناة فى جمع الحديث النبوى، وما كنا نسمع عنه بشأن الرحلة فى طلب الحديث التى قد تكون بين قارة وقارة أخرى على دابة بطيئة الخطا، وليس على طائرة، ولا من خلال شبكة الاتصالات «الإنترنت» التى تأتيك بالمعلومة فى لحظة؟!

ويتكرر السؤال: ما الذى غاب عن منظومة حضارة الإيمان؟!

وواقعنا يشهد بأن الذى غاب هو الإنسان الذى يستجيب لهدى القرآن، ويحول آياته إلى واقع عملى، أما أن نقرأ القرآن نغمًا ونسمعه طربًا ولا نستجيب له سلوكًا وعملًا فهذه جريمة فى حق ديننا وقرآن ربنا وسنة نبينا ﷺ .

وهذه أمثلة من التناقض الصارخ الذى تعيشه الأمة فى حياتها المعاصرة:

* القرآن دعانا للعمل، فى حين أن صافى ساعات العمل اليومى للعامل فى بلادنا لا يتجاوز ساعة واحدة يوميًّا حسب آخر الإحصاءات .

* القرآن دعانا إلى الإتقان والتميز، قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة/ ١٩٥ .

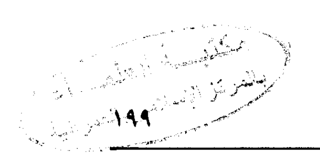
وفى إطار العولمة التى لا تعترف إلا بالإنتاج المتميز، كان ينبغى أن تكون المقدمة لإنتاج الأيدى المتوضئة المؤمنة الصادقة، لكن الواقع كما ترى!!

* القرآن دعانا إلى التماسك والتعاون، فما بالنا نتمزق ونتفرق ؟ أموالنا فى أيدى أعدائنا، ووضعنا أيدينا فى أيدى اليهود القتلة المفسدين، ولم نضع أيدينا فى أيدى إخواننا المسلمين!!

* فهذا هو القرآن صانع الحضارة وصانع خير أمة، فأين منه المسلمون ؟! أين منه المسلمون عملًا وسلوكًا ؟!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد/ ١١ .

والله المستعان



موضوعات كتاب القرآن وصحوة العقل